بسم الله الرحمن الرحيم

من بلاغة القرآن الكريم
في قصة قارون

أ . د عبد الحليم محمد ابراهيم شادى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية
بإيتاى البارود

من بلاغة القرآن الكريم

فى قصة قارون

القصة فى القرآن الكريم وسيلة إلى الموعظة ، وبث العبرة فى النفوس بطريقة سهلة محببة تجعل العظة متقبّلة فى النفس تأنس لسماعها ، يقول الله - تعالى - { نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين }[1] .

وتتميّز القصة فى القرآن الكريم بأنها واقعية ؛ ليست من نسج الخيال ، بعيدة عن الزيف والتكلف ، وأن لها هدفين أساسين هما : الدعوة إلى توحيد الله - تعالى - وعبادته وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق . وقصة قارون التى بصدد الدراسة عرضها القرآنُ الكريم بطريقة موجزة بليغة معجزة مؤثرة فى النفس تجعل سامعيها يحنوُن رءوسهم ، ويفيئون إلى ربهم ويلتزمون صراطه المستقيم ؛ إذْ فيها عبرة للأغنياء الذين أفاء الله عليهم من فضله ولكنَّ النعمة أبطرتهم فنسوا الله وفضله ، وطغوْا وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة فأنساهم أنفسهم وضلوا وبغوا على عباده فأضلهم الله وكانت العاقبة هى الخسران المبين .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

ومغزى سورة القصص التى فيها هذه القصة هو سوق العبر والعظات إلى عظماء كفار مكة الأغنياء وأصحاب السلطان والجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة الذين تصدوا للدعوة الإسلامية بمحاربتها والوقوف فى طريقها معتمدين على أموالهم وسلطانهم ظانين أن المكانة العظيمة مرجعها الأول والأخير إلى المال والجاه والسلطان وكأنهم فى منعة من عقاب الله - تعالى - ولذا يقول - سبحانه وتعالى - عنهم :

---

(١) الآية ٣ سورة يوسف .

{ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك ؟! نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون }[1] .

ولو دقّقنا النظر لوجدنا أن العبرة فى السورة من أوّلها إلى آخرها ارتكزت على محورين : أو على قصتين : قصة فرعون وطغيانه وتكبره وتجبره وادعائه الألوهية وإرسال الله - تعالى - موسى إليه لهدايته ومن أضلهم فكانت نهايته هو وجنده هى الهلاك بابتلاع البحر لهم ، وانتصار موسى ونجاته ومن آمنوا معه بعون الله - تعالى - وفضله .

ثم قصة قارون ، وهو رجل من بنى اسرائيل آمن برسالة موسى إلا أنه لما أعطاه الله المال الكثير ضل وبغى وتكبر واغتر وآذى موسى وهارون وامتنع عن دفع الزكاة مدّعياً أن ماله إنما هو لعلمه أو مهارته منكراً فضل الله - تعالى - عليه ، وكانت نهايته - أيضاً - الهلاك بابتلاع الأرض له ولداره وأمواله .

ومما يلفت النظر ويثير الانتباه أنه : كما كان مسلك كل منهما مشابهاً لمسلك الآخر فى الفساد والبغى والضلال كانت نهاية كل منهما مشابهة - أيضاً - لنهاية الاخر ؛ ففرعون ابتلعه البحر هو وجنوده كما ورد فى هذه السورة {فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين }[2] ، وقارون ابتلعته الأرض هو ومن ناصروه كما جاء فى قصته فى هذه السورة : {.. فخسفنا به وبداره الأرض ،فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين} .

ومما يبعث على التأمل أن بطلَى القصتين نبيان أخوان هما : موسى - كليم الله - وأخوه هارون عليهما السلام .

---

(١) الآية ٣٢ سورة الزخرف .
(٢) الآية ٤٠ سورة القصص .
(٩٣ الآية ٨١ سورة القصص .

يقول الله - تعالى - فى سورة القصص : { إنَّ قارونَ * كَانَ مِنْ قومِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وآتيناه من الكنوز مَا إنَّ مَفَاتحه لتَنُوء بالعُصْبَةِ أُولِى القوّة ، إذْ قالَ له قومُه لا تفرحْ إنّ الله لا يحب الفَرِحِينَ * وابْتَغ فيما آتاك الله الدارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسْ نصيبك مِنَ الدُنيا وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إلَيْك ولا تَبغِ الفَسَادَ فى الأرض إنّ الله لايُحِبُّ المفسدين * قال : إنّمَا أوتيته على عِلْمٍ عِنْدِى ، أوَ لَمْ يَعْلم أنَّ اللهَ قَدْ أهلَك مِنْ قَبْلِه مِنْ القُرُونِ مَنْ هُوَ أشَدُّ منه قوّةً وأكْثَرُ جَمْعًا ولا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المجرمون * فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فى زِينَتِهِ قَالَ الذِينَ يُرِيدون الحَيَاة الدُنيا : يالَيْتَ لنا مِثْلَ ماأُوتِىَ قارونُ ؛ إنّه لَذُو حَظّ عَظيمٍ * وقال الذِينَ أوتُوا العِلْمَ : وَيْلَكُم : ثوَابُ الله خَيرٌ لِمنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وبِدَارِهِ الأرْضَ فَمَا كان له مَنْ فئَةٍ يَنْصُرُونَه مِنْ دُونِ الله ومَا كان مِنَ المُنْتَصِرِينَ * وأصْبَحَ الذِيَن تَمَنَّوْا مَكانَهُ بالأمْس يَقُولون : وَيكَأنّ اللهَ يَبْسُط الرزْق لمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِه ويَقْدر لَوْلاَ أنْ مَنَّ اللهَ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيكأنَّه لاَ يُفْلِحُ الكافِرُون * تلك الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا للذِينَ لايُرِيدُون عُلُوًّا فى الأرْضِ وَلاَ فَسَاداً والعاقِبَةُ للمتقينَ * }[1] .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

ولما كانت كل قصة من قصتى فرعون وقارون صالحة لأنْ تستقل بسَوْق العبر بدِئَتْ كل منهما باستئناف ابتدائى للاهتمام بخبر فرعون وقارون وقصتيهما الغريبتين وإزالة كل شك عن إخبار القرآن بأحداثهما ؛ ففى أوّل قصة فرعون : { إنّ فِرْعَوْن عَلاَ فى الأرْضِ وجَعَل أهْلَهــا شِيَعًا .... إنّه كَانَ مِنَ المفْسِدِين »[2] وهنا أيضا - فى قصة قارون بدأت بالاستئناف نفسه : { إنَّ قَارُون كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ .... ولاَ تَبْغِ الفَسَادَ فى الأرْضِ إنّ الله لاَ يُحبّ المُفْسِدِين } ثم يعقب الله - تعالى - على القصتين فى أواخر السورة بما هو ملائم لأخذ العِبْرة مِنْ كل

(١) الآيات ٧٦ - ٨١ سورة القصص .
(٢) الآية ٤ سورة القصص .

قصةً بقوله تعالى : { تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين } وهو تعقيب أو ختام يتلاءم مع براعة الاستهلال بهذا الاستئناف فى أول كل قصة منهما - كما سبق بيانه آنفاً .

هذا .. إلى جانب أن للقصتين علاقة وثقى بقوله - تعالى - بين القصتين : وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون }[1] .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

✪ { إن قارون كان من قوم موسى } ظاهره أنه كان ممن آمن برسالة موسى كما قال بعض المفسرين[2] ولعل ماجعلهم يقولون بذلك أن قومه وعظوه بخمس عظات مما يوعظ به المؤمنون : « .. لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين .... إلى قوله - تعالى - { ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين } .

ومن يمعن النظر يجد أن الآية الكريمة جاءت دقيقة فى التعبير ؛ فلم تقل - حاشا لله - (كان مؤمنا من قوم موسى) وفى ذلك إشارة إلى أنه آمن ظاهراً ؛ فالإيمان لم يتغلغل فى قلبه ؛ يقول المفسرون : إنه كان أقرأ بنى اسرائيل للتوارة ولكنه نافق[3] كما نافق السامرى[4] - من قوم موسى أيضا - (أو كان مؤمنا ولكنه انتهى به الحال إلى الغرور والبغى فتناسى فضل الله عليه ، بل تناسى الدين نفسه[5] ، ويويد هذا أنه فى نهاية القصة جاء ما فيه تصريح بكفره فى قوله - تعالى - على لسان الذين تمنوا مكانه وندموا بعد الخسف به وبداره { .. ويكأنه لا يفلح الكافرون } ؛ ولذا جاء قوله : { فبغى عليهم } مباشراً لقوله : {كان من قوم موسى} ؛

---

(١) الآية ٦٠ سورة القصص .

(٢) الزمخشرى فى الكشاف ١٩٠ جـ ٣ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بهامشه حاشية السيد الشريف .

(٣) ١١٠ جـ٢٠ روح المعانى للألوسى مكتبة دار التراث - القاهرة و٣٩٩ جـ ٣ تفسير ابن كثير طبع ونشر دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

(٤) هو المذكور فى قوله تعالى : { قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى } ٨٥ طه .

(٥) ١٩٨ أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم د. عبد الحليم حفنى الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ليؤكد ذلك ؛ إذْ أنَّ الفاء فى { فَبَغَى } فاء الفصيحة ، أفصحت عن محذوف[1] يؤكد ذلك ، والأصل : (فضلّ فَبَغَى) إلى جانب ماتفيده من ترتيب البغى بعد الضلال والنفاق والخروج من الدين دون تراخ فى الزمن ، ولو كان مؤمناً - حقاً - ماغترَّ وماغَوَى وما ضَلّ ومابَغَى ، وما كان القرآن يعبر عنه بذلك بل مما يزيد ذلك تأكيداً وقوع قوله { فبغى عليهم } بين تقرير أنه { كان من قوم موسى } - مجردا عن الإيمان - وبين الحال التى تصف غناه { وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة } ؛ وذلك ليدل على أن غناه هو سبب انحرافه وضلاله ونفاقه وضياع إيمانه : { كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى }[2] وربما لأجل ذلك لم يقل القرآن (كان مؤمنا من قوم موسى) فالآية حقاً - دقيقة فى تعبيرها : { كان من قوم موسى } .

هذا .. ولما كانت القصة مسوقة لدحض كفار مكة الذين تصدوا للدعوة الاسلامية ، وآذوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن قوله : {كان من قوم موسى} تعريض بهم - لأنهم من قوم محمد - غرضه إنذارهم وتهديدهم بالعقاب كما حصل لقارون الذي أطغته النعمة مثلهم فعاقبه الله عقابا شديداً { فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين } .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

✪ { ومن بلاغة القرآن الكريم أنه لم يفصّل فى هذا البغى بل (جاء مجهلاً ؛ ليشمل كل صور البغى)[3] ؛ وهذا من ميزات بلاغة الإيجاز بالقصر التى يعنى المعنى الكثير واللفظ القليل وقد أغْنى فى هذا المقام عن تفصيل طويل لشرح بغيه مما لا يليق ببلاغة نظم القرآن الكريم ولا ببلاغة هذه القصة ؛ فقد ذكر المفسرون صورا عدة لبغيه وكلها يتفق مع ضلاله وبغيه ونفاقه[4] إلا أن أبرز هذه الصور يتمثل فى أربع : -

---

(١) ١١٠ جـ ٢٠ روح المعانى .

(٢) ٦ ، ٧ سورة العلق .

(٣) ٢٧١١ فى ظلال القرآن المجلد الخامس للأستاذ سيد قطب الطبعة العاشرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ - دار الشروق .

(٤) أوصلها الفخر الرازى فى تفسيره إلى سبع صور صـ ١٤ جـ ٢٥ المجلد الثالث عشر مفاتيح الغيب الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م - دار الفكر - بيروت .

أولاها: حسده واعتراضه على نبوه موسى وعلى حبورة هارون ثم نبوته[1] .

ثانيتها وثالثتها : امتناعه عن دفع الزكاة مستكثراً ما يجب عليه دفعه ثم أمعن فى عداء موسى فسلط عليه بَغِيًا لترميه بنفسها ولكن الله برأه[2] ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : { يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا : وكان عند الله وجيها }[3] .

رابعتها : أرى أن رابعتها أنه لم يعترف بفضل الله – تعالى – عليه حين نصحه المؤمنون بالنصائح الخمس بل قال : { إنما أوتيته على علم عندى } فجرد النعمة التى هو فيها من الأسباب الإلّهية ونسبها إلى علمه ومهارته ، بل عاند من نصحوه ، وأراد أن يبرهن على صحة مقولته عملياً { فخرج على قومه فى زينته .. } فى خيلاء وتكبر وتجبر واعتزاز وكأن لا غالب له ، ولذا عطف علي مقولته هذه قوله تعالى – فخسفنا به وبداره الأرض ..} .

---

(١) يروى أن موسى – عليه السلام – لما قطع البحر ، وأغرق الله – تعالى – فرعون جعل الحبورة لهارون فحصلت له النبوة والحبورة ، وكان صاحب القربان والمذبح .. فوجد قارون من ذلك فى نفسه فقال : يا موسى : لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست فى شىء ، ولا أصبر أنا على هذا ، فقال موسى – عليه السلام – والله ما صنعت ذلك لهارون ولكن الله جعله له فقال : والله لا أصدقك أبداً حتى تأتينى بآية .. فأمر موسى رؤساء بنى اسرائيل أن يجىء كل رجل منهم بعصاه فجاءوا بها فألقاها موسى – عليه السلام – فى قبة له ، وكان ذلك بأمر الله – تعالى – فدعاربه أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم . فأصبحت عصا هارون تهتز لها ورق أخضر كانت من شجر اللوز فقال موسى : يا قارون أما ترى ما صنع الله لهارون !!! فقال : والله ماهذ بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومن معه ناس كثير فما كان يأتى موسى ولا يجالسه ، وولى هارون الحبورة والمذبح والقربان فكان بنو اسرائيل يأتون بهداياهم إلى هارون فيضعها فى المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها (١٥ جـ ٢٥ المجلد الثالث عشر تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازى) الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت .

(٢) يروي أن قارون كان يؤذى موسي كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره فعمد إلى أن يفضح موسى بين بنى اسرائيل ليرفضوه فرشا بغيا لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيبا فقال : من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ، ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون : ولو كنت (أنت) ؟ قال ولو كنت (أنا) قال : إن بنى اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فاستحضرت فناشدها موسى – عليه السلام – بالله أن تصدق فقالت ؛ جعل لى قارون جعلا على أن أرميك بنفسى فخر موسى شاكيا منه إلى ربه فأوحى الله إليه : أنْ مر الأرض بما شئت فقال : يا أرض خذيه فأخذته ....) .
٨٨ جـ٧ تفسير البيضاوى هامش حاشيته الشهاب . المكتبة الإسلامية ديار بكر – تركيا وانظر أيضا صـ ١٢٣ جـ ٢٠ روح المعانى وتفسير ابن كثير ٤٠١ جـ ٣ برواية أخرى .

(٣) ٦٩ سورة الأحزاب .

✪ { وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة }

الواو فى { وآتيناه } واو الحال ، ومضمون الجملة حال من قارون والمعنى : (فبغى عليهم والحال أنا آتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) ومقتضى هذه الحال أن يعلم قارون أن أمواله هذه من فضل الله عليه فكان يجب ألا يضل ولا يبغى ، ولكنه على الرغم من ذلك - لم يتذكر فضل الله - تعالى - عليه فضل وبغى ، ولهذا حسن تقديمه التنبيه على بغيه { فبغى عليهم } قبل الحديث عن إيتائه هذه الأموال ؛ إذ فيه تقديم لنتيجة الابتلاء من الله - تعالى - بالمال على ذكر المال ، أو هو تقديم للمسبب على السبب وفى تقديم هذه النتيجة أو المسبب براعة استهلال فى مقدمة هذه القصة ؛ إذ يوحى هذا الاستهلال { فبغى عليهم } بالعاقبة مسبقاً وهى العقاب المذكور فى نهاية القصة فى قوله - تعالى - { فخسفنا به وبداره الأرض } وكأن فى هذا التقديم أو الاستهلال إيجازاً للقصة ؛ إذ أنه وقر فى الأذهان أن عاقبة البغى العقاب .

✪ ثم إن قوله : { وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة } من يدقق النظر فيه يجد أن الضمير فى { مفاتحه } للمفرد المذكر[1] وعليه يكون الموصول (ما) بمعنى الذى ومعنى هذا أنه كنز واحد له عدة أبواب لكل باب مفتاح غير الآخر ويعنى هذا كثرة الخزائن فى هذا الكنز[2] ، ويدل على هذا { مِنْ } { من الكنوز } ؛ فإنها لبيان البعضية الخاصة أى هو بعض مخصوص موصوف بأن مفاتحه { تنوء بالعصبة أولى القوة } وقد أكد هذا الوصف بإنّ واللام لإزالة كل شك فيه - كما أن التعبير عنه بما الموصولة أشعر بفخامة هذا الكنز أو الخزائن فيه وبالتالى كثرة الأموال فيه فهو فى إشعاره بالفخامة والعظمة كإشعاره فى قوله تعالى

(١) جرى المفسرون على أنها عدة كنوز على الرغم من هذا الضمير وربما يعنون بها الخزائن فى هذا الكنز .
(٢) ويؤيده مانقله الألوسى عن السدى في تفسير { مفاتحه } « أى مفاتيح خزائنه » ١١٠ جـ ٢٠ روح المعانى للألوسى .

{ فغشاها ماغشى }[1] وقوله: { فغشيهم من اليم ما غشيهم }[2] ولهذا فضل على الموصول (الذى) ؛ لأنه لا يشعر بتلك الفخامة[3] ، وزاد فى فخامة هذا الكنز - أيضا - أنه دلل على كثرة مفاتحه كثرة هائلة بوصفها[4] بقوله : { لتنوء بالعصبة أولى القوة } أى تثقلهم حتى تميل بهم ، ولهذا جاء قوله : {لتنوء بالعصبة أولى القوة} كناية عن صفة هى ثقل هذه المفاتيح لكثرتها ؛ إذ يلزم من وصف هذه المفاتيح بكونها تثقل العصبة أولى القوة حتى تميلهم ، أو تجهدهم - على الرغم من أنهم لايقلون عن العشرة الأشداء[5] أنها كثيرة ، ويلزم من كثرتها كثرة الخزائن فى هذا الكنز - كما سبق ويلزم من كثرة الخزائن كثرة الأموال فهى كناية بثلاث وسائط ، والكناية دعوى مصحوبة بالبينة ؛ إذ لا ينكر أحد كثرة الخزائن إذا سمع صفته هذه ، المفاتيح وبالتالى كثرة الأموال .

أما المعنى غير الكنائى (وآتيناه خزائن كثيرة مليئة بالأموال الكثيرة)فلا يصل إلى تلك الدرجة العليا من البلاغة القرآنية لعدم التدليل فيه وعدم التفخيم والتأكيد بل إن القول الكريم أبلغ من (وآتيناه كنزا مفاتحه تنوء بالعصبية أولى القوة) - على الرغم مما احتواه - أيضا - من هذه الكناية ، وذلك لأنها كناية خالية من الفخامة والتأكيد ومن البعضية المشعرة بعظمة مُلكْ الله الذى له ملك السموات والأرض الذى أعطى قارون منه ؛ ولهذا فإن القول المنزل ينفرد بتلك البلاغة العليا وهذا الإعجاز . وسبحان من هذا كلامه !!

---

(١) ٥٤ سورة النجم .

(٢) ٧٨ سورة طه .

(٣) التفخيم والتهويل والتعظيم بمعنى واحد (ينظر صـ ٧٥ المطول للتفتازانى) .

(٤) يقصد بالوصف فى البلاغة الوصف فى المعنى فيشمل النعت والحال والخبر ....

(٥) استدل الرازى في تفسيره على أنهم لايقلون عن العشرة بقوله تعالى : فى قصة يوسف - عليه السلام - { قالوا لئن أكلهم الذئب ونحن عصبة إنا إذ لخاسرون } (سورة يوسف) إذْ كانوا عشرة غير يوسف وأخيه اللذَيْنْ لم يكونا معهم .

١٥ جـ ٢٥ المجلد الثالث عشر مفاتيح الغيب ، وفى روح المعانى أن العصبة الجماعة من غير تعيين لعدد خاص ... وقيل من عشرة إلى خمسة عشر وقيل من الخمسة عشر إلى الأربعين وقيل من عشرة إلى أربعين وقيل : أربعون وقيل : سبعون ، وقال الخفاجى إن أصل معناها الجماعة مطلقاً كما هو مقتضى الاشتقاق (١١١ جـ ٢٠ روح المعانى) .

هذا ... وقد فضل التعبير بالكنوز عن الخزائن - على الرغم من أن الكنز - أصلاً - للمال المدفون فى الأرض للإشارة إلى أن هذا المال مُدَّخر فائض عن حاجة قارون ؛ فلايستـ ـمله أو يتدواله فى التعامل شأن الكنز المدفون فى الأرض ففيه استعارة تصريحية عن الخزائن قصدت للمبالغة فى الادخار ؛ إذْ هو ليس ادخاراً لوقت الحاجة ولكن بَيْنَه وبين الكنز المدفون فى الأرض مشابهة هى عدم حاجة صاحب هذا المال إليه .

✪ { تنوء بالعصبة أولى القوة }

آثر القرآن الفعل { تنوء } على الفعل (تثقل) ؛ لأنه أدل على المقصود مباشرة دون حاجة إلى تقييده ؛ لما فيه من زيادة مقصودة فى المعنى ؛ إذْ يعنى الثقل الشديد الذى يميل أو يجهد من يحاول أن ينهض بالشىء المراد حمله ؛ فليس ثقلاً عادياً(١) ومابالك إذا كان الفاعل الذى يحاول حَمْلَ هذه المفاتيح عصبة لاتقل عن عشرة رجال أشداء : { بالعصبة أولى القوة } لاريب أن فى هذا إشارة أو إيحاء بكثرة هذه الخزائن ؛ إذْ أنه إذا كانت المفاتيح صفتها كذلك فلاريب أن هذه الخزائن كثيرة وهذا بالتالى يعنى كثرة الأموال التى لاتكاد تحصى أو تعد .

✪ ثم لماذا أسند الفعل { تنوء } الذى يحمل معنى الثقل الشديد والنهوض بالشىء أو حمله بجهد ومشقة وهو من فِعْل الحامل (العصبة) - إلى المفاتيح ؟ فهل فى ذلك قلب كما يقول بعضهم ؟(٢) أى أن أصله - كما فى لسان العرب - عن الفراء

---

(١) فى القاموس ولسان العرب والمعجم الوجيز : ناء به الحمل وأناءه : أثقله وأماله : كما يقال : ذهب به وأذهبه بمعنى ، وزاد فى اللسان قوله : { ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة } نوؤها بالعصبية أن تثقلهم ، والمعنى : إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أى تميلهم من ثقلها .. قال الفراء : قال رجل من أهل العربية (أصله) ما إن العصبية لتنوء بمفاتحه فحوّل الفعل إلى المفاتح كما قال الراجز :-

إن سراجا لكريم مَفْخرهْ

تجلى به العين إذا ما تجهره

وهو الذى يحلى بالعين (٤٥٦٦ جـ ٦ مادة (نوء) لسان العرب دار المعارف .

(٢) ينظر صـ ١١١ جـ ٢٠ روح المعانى وصـ ٣٧٣ و٣٧٩ جـ ٧ إعراب القرآن وبيانه للأستاذ محيى الدين الدرويشى طبع ونشر دار ابن كثير دمشق ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

عن رجل من أهل العربية { وآتيناه من الكنوز ماإنّ العصبة لتنوء بمفاتحه }[1]ومعناه أن العصبة تنهض بها - أى تحملها - متثاقلة لكثرتها وثقلها ، فحوّل الفعل إلى الفاعل ؛ أى صار - كما فى التنزيل الحكيم - { ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة }[2] ، والباء للتعدية ، لأن الفعل (ناء) لازم[3] والمعنى على هذا : (إن مفاتحه تثقل بالعصبة أولى القوة أى تميل بهم لكثرتها وثقلها) فواضح أن فى الآية قلبا ؛ لأن النوءَ أى حمل الشىء بمشقة من فعل الإنسان وليس المفاتح فجعل الفاعل (العصبة) متعديا إليه بالباء ، وجعل المفعول (المفاتح) فاعلا للمبالغة وهذا كقوله - تعالى - { ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها .. }[4] { ويوم يعرض الذين كفروا على النار : أليس هذا بالحق }[5] والأصل : { ويوم تعرض النار على الذين كفروا } فحول الإسناد[6] قصدا للمبالغة ووجهها - هنا - يتجلّى فى اسناد الشىء إلى غير ماهو له على المجاز العقلى[7] ، حيث أسند الفعل { تنوء } الذى حقه أن يسند إلى العصبة وهو الفاعل الحقيقى له إلى المفاتح والملاحظ أن المؤدى فى الآية أو المعنى المراد واحد على كلا الوجهين (الأصلى ، والقلب أو المجازى) وهو أن هذه المفاتح ثقيلة جداً لكثرتها بحيث لاينهض بحملها - وبمشقة - إلا العصبة أولو القوة ، فالسر البلاغى فى عدول القرآن الكريم عن الأصل إلى القلب - أو إلى الإسناد المجازى - كما قلت - هو المبالغة ؛ لأنه إذا كانت العبارة قبل القلب ، أو قبل الإسناد المجازى (ما إن العصبة أولى القوة لتنوء بالمفاتح) والعبارة المنزلة هى { ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة } فإنّ البلاغة

---

(١) فاعل (تنوء) - على هذا - ضمير العصبة المستتر .

(٢) وعلى هذا يكون فاعل (تنوء) ضمير مستتر يعود إلى المفاتح .

(٣) والمتعدى منه (أناء) ٤٥٦٦ جـ ٦ (ناء) لسان العرب .

(٤) ٢٠ الأحقاف (٥) ٣٤ الأحقاف .

(٦) أى أسند الفعل (تعرض) إلى الذين كفروا بعد أن كان مسندا إلى النار .

(٧) وبهذا يتضح أن هذا القلب غير القلب البديعى الذى يعنى قلب الحروف كأن تقرأ الكلمة أو الكلمات من أولها إلى آخرها أو من آخرها إلى أولها .. كقوله - تعالى - { كل فى فلك .. } وقوله { وربك فكبر } وهو أربعة أقسام ينظر من ٦٤ - ٦٨ روضة الفصاحة لأبى منصور الثعالبى - تحقيق وتعليق الأستاذ / محمد ابراهيم سليم طبع ونشر مكتبة القرآن ١٩٩٤

والمبالغة فى التعبير القرآنى الحكيم تتمثل فى مجاز الإسناد (المجاز العقلى) ؛ إذ جعل المفاتح هى التى تنوء بالعصبة أى تثقلهم وتميلهم ، وكأنها هى التى تأخذهم قَسْراً عنهم وتميل بهم لكثرتها وثقلها كما فى ذهب به وأذهبه وكأن مادخلت عليه باء التعدية مستسلم للفاعل ولا حيلة له فى دفعه ، ومن أجل ذلك فإن المفاتح تنوء بهم أى تثقلهم وتميلهم وهم مستسلمون لها عند حملها ولا حيلة لهم فى مقاومتها لكثرتها وثقلها وكأن فى المفاتح قوة مافيه أو من فيه روح وحياة وحركة وانفعال ومحاولة وإرادةالتغلب[1] ، أما عبارة الإسناد الحقيقى (قبل القلب) فليس فيها تلك المبالغة والبلاغة ؛ لأن الفعل { تنوء } مسند إلى العصبة إسناداً حقيقياً ومعناه – كما سبق – أن العصبة تحمل المفاتح بجهد ومشقة فتميل بالمفاتح ؛ ولاعجب أن يأتى الفعل من فاعله الحقيقى[2] .

✪ { بالعصبة أولى القوة }

القرآن الكريم – أطلق العصبة[3] ؛ ليترك للعقل أن يتخيل العصبة أكثر من ذلك وعليه يتخيل المفاتح أكثر فتكون الخزائن والأموال أكثر وأثقل ؛ ومن البلاغة الإيجاز والإطلاق ؛ لقلة اللفظ واتساع المعنى – ثم إن الكلام الحكيم – فوق هذا الإطلاق – زاد فى المعنى البلاغى فوصف العصبة بالقوة ؛ إذْ ليست كل عصبة فى إمكانها أن تنهض بحمل المفاتح الكثيرة الثقيلة بجهد فتميل بها فهو وصف فيه احتراس بلاغى لطيف ، دفعاً لتوهم عصبة ضعيفة ، وهذا من إحكام المعنى والإحاطة والاحتياط فيه .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

(١) يعترض صاحب التحرير والتنوير على هذا القلب بقوله : (وأما قول أبى عبيدة بأن تركيب الآية فيه قلب فلا يقبله من له قلب) ١٧٧ جـ ٢٠ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور نشر الدار التونسية ١٩٨٤ م وقد اتضح مما سبق أنه اعتراض لامحل له .

(٢) ولهذا فإن الإمام عبد القاهر يشيد ببلاغة المجاز العقلى (الحكمى) فيقول : هذا الضرب من المجاز كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان والاتساع فى طرق البيان ..... وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها والنادرة لم تأنق لها .... ١٩٤ ، ١٩٥ دلائل الاعجاز .

(٣) راجع حديثاً مفصلاً عن (العصبة) فى تعليق صـ ١١ .

✪ ثم بعد أنْ بينت القصة حال قارون من الغنى والضلال والبغى دخلت فى القسم الحوارى التفاعلى ؛ إذْ بدأت بنصائح المؤمنين لقارون : { لاتفرح إن الله لايحب الفرحين ..... إلى قوله : { ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين } خمس عظات أو نصائح : عدم الفرح بماله الفرح الذى يبطر صاحبه ممايؤدى إلى الخروج عن حد الاعتدال والحق إلى جانب الافتراء والبغى والظلم والتكالب على الدنيا ونسيان الآخرة - انفاق المال فى سبيل الله لابتغاء الدار الآخرة - ألا ينسى نصيبه من التمتع بحلال الدنيا - الإحسان فى معاملته مع الله ومع الناس كما أحسن الله إليه - عدم الإفساد فى الأرض لأن الله لايحب المفسدين .

✪ {..إذ قال له قومه لا تفرح ؛ إن الله لا يحب الفرحين} {إذ قال له قومه :لا تفرح ... } قيل : إنَّ { إذْ } متعلق بالفعل { بغى } المذكور أو بالفعل { تنوء } أو {بآتيناه} أو بمحذوف والتقدير : أظهر التفاخر والفرح بماأوتى ؛ إذ قال له قومه : لاتفرح .. أو هو ظرف لمحذوف دلّ عليه الكلام أى بغى عليهم إذ قال .. أو متعلقاً بما بعده من قوله : { قال إنما أوتيته على علم عندى }[1] .

ويرى ابن هشام : أن مثل هذا مفعول به بتقدير (اذكر) ويعيب على من يجعلون (إذْ) ظرفا لا ذكر محذوفاً[2] ؛ فهى آراء سبعة تميل النفس إلى واحد منها أما ماعداه فواضح فيها التكليف الذى لايليق ببلاغة القرآن الكريم المعجزة وأما ماتميل إليه النفس ويتلاءم مع نظم الكلام وبلاغته فهو أنَّ { إذْ } متعلق بما بعده من قوله - تعالى - { قال : إنما أوتيته على علم عندى } ؛ إذْ أن المعنى عليه : { قال : إنما أوتيته على علم عندى حين قال له قومه : لا تفرح ... إلى قوله : إن الله لا يحب المفسدين } .

---

(١) ١١٢ جـ ٢٠ روح المعانى للألوسى .

(٢) يقول ابن هشام : « والغالب على المذكور في أوائل القصص فى التنزيل أن يكون مفعولاً به بتقدير (اذكر) نحو : { وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... } { وإذْ فرقنا بكم البحر فانجيناكم ... } ثم يعيب على الذين يجعلونها ظرفاً لا ذكر محذوفاً بقوله : « وهذا وهم فاحش لاقتضائه حينئذ الأمر بالذكر فى ذلك الوقت مع أن الأمر للاستقبال وذلك الوقت قد مضى قبل تعلق الخطاب بالمكلفين ، وإنما المراد ذكر الوقت نفسه لا الذكر فيه » (٧٤ جـ ١ مغنى اللبيب لابن هشام نشر دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى) .

أما السر البلاغى فى تقدُّم { إذْ } على عامله - " قال " - فللاهتمام به ؛ لأنه هو الظرف (الوقت) الذى وجَّهَ فيه المؤمنون نصائحهم إلى قارون ؛ ولهذا باشر هذه النصائح وتصدَّرها : { إذْ قال له قومه : لا تفرح ... } كما أن السر فى هذا الاهتمام والتقديم - أيضا - هو لفت الأنظار والتعجيب من أمر قارون !! إذْ كيف يكون ردّه - حين سماعه هذه النصائح العظيمة التي تحكى عدالة التشريع الإلهى - بقوله - : {إنما أوتيته على علم عندى} ؟!! كما أن مفهوم مقولة قارون هذه هو الكفر وجحود نعمة الله - تعالى - ونسبتها إلى نفسه هو وإلى علمه هو ، وقد كان يجب أن يمتثل وبخاصة أن هؤلاء الناصحين يعلم قارون أنهم مخلصون - كما أن فى هذه المقولة - حين سماعه هذه النصائح تلويحاً بأنه يعطى لنفسه الحرية فى تصرفاته لأن مفهوم قوله : { إنما أوتيته على علم عندى } يوحى بذلك - على الرغم من هذه النصائح ؛ فليبطر أو يأشر - كما يشاء وله الحرية ألاّ يبتغى الدار الآخرة فيما آتاه الله من أموال فلاينفق من ماله فى وجوه الخير - كما يشاء - ويدل على هذا أنه لما اصطلح مع موسى - عليه السلام - على اخراج الزكاة حسب مايجب إخراجه فاستكثره وامتنع وألَّب بنى اسرائيل عليه قائلاً لهم : إن موسى يريد أن يستولى على أموالكم وزاد على ذلك بأن سلط أمرأة بغيا بإرشائها لترميه بنفسها ولكن الله برأه { ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها }[1] كما أن فى مقولته - أيضا - تلويحاً بأن له الحرية ألا يحسن فى معاملته مع الله ومع الناس وأن يفسد فى الأرض - كما يشاء - على الرغم من نصائح المؤمنين له ؛ ولهذا كله لزم التعجيب من موقفه هذا حين سماعه هذه النصائح العظيمة والذى دلّ عليه بتقديم الظرف { إذْ } الذي وقعت فيه هذه النصائح له - على عامله : { إذْ قال له قومه لا تفرح ... قال إنما أوتيته على علم عندى } .

---

(١) ٦٩ سورة الأحزاب .

✪ ولكن كيف ينهى المؤمنون قارونَ عن الفرح فهل هو مذموم وكيف أن الله لايحب الفرحين ؟[١]

الفرح فى حد ذاته غريزة إنسانية خلقها الله فى الإنسان ولكن المحرم منه هو ماغُولى فيه إلى درجة أنْ يخرج صاحبه إلى ما هو محرم كأنْ يكون « فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال والاحتفال بالثراء والتعلق بالكنوز والابتهاج بالملك والاستحواذ ، أو كان فرح البطر الذى يُنْسِي المنعمَ بالمال ، ويُنْسِي نعمته ومايجب لها من الحمد والشكر أو فرح الذى يستخفه المال فيشغل به قلبه ويطير له لبّه ويتطاول به على العباد »[٢] .

وإذا كان المذموم من الفرح هو ماأخذ إحْدى هذه الصفات كان هناك نوع خاص ممدوح كفرح الرضا[٣] كما فى قوله - تعالى - { كل حزب بما لديهم فرحون }[٤] أو كان فرح السرور كما فى قوله - تعالى - { ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ... }[٥] وقوله : { فرحين بما آتاهم الله من فضله }[٦] إذا كان ذلك كذلك . فما السر فى التعبير عن المذموم منه باللفظ المطلق عن التقييد ؟

يلاحظ أن الفرح المحبوب أو المرغوب فه - أخْذًا من هذه الآيات - أنه فى غير جانب المال كالفرح بنصر الله للمؤمنين أو فرح الشهداء بما آتاهم الله من

---

(١) يقول الزمخشرى ١٩٠ جـ ٣ الكشاف : « لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق مافيه عن قريب فلاتحدثه نفسه بالفرح كما قال القائل :

أشد الغم عندى فى سرور تيقّنُ عنه صاحبه انتقالا

كما فى قوله - تعالى - { لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور } (٢٣ سورة الحديد) وانظر أيضا - مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١٦ جـ ٢٥ المجلد الثالث عشر .

(٢) ٢٧١١ المجلد الخامس (فى ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب الطبعة العاشرة .

(٣) ينظر المصباح المنير للفيومى ٦٣٨ جـ ٢ الطبعة الثامنة نشر وزارة المعارف بالمطبعة الأميرية ١٩٣٩م .

(٤) ٥٣ سورة المؤمنون .

(٥) ٤ ، ٥ سورة الروم .

(٦) ١٧٠ سورة آل عمران .

فضله ، أو الفرح بمعنى الرضا عن الشيء ، أما فرح قارون فهو بإزاء خزائن المال بدليل أنه جاء فى سياق قوله - تعالى - { وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة } وهو فرح يطغى صاحبه ، لأنه متعلق بما هو زخرف الحياة الدنيا الفانية مما يؤدى فى النهاية إلى الزهو والخيلاء والتكبر وإلى البطر بالمال حتى يجحد بنعمة الله - تعالى - ولا يؤدى شكرها لخالقها ، وإلى استخفاف صاحبه وشغل صاحبه به ، وإلى تعاظمه على العباد بسببه ، ومن هنا فلم يكن هناك داعٍ لتحديد نوع الفرح أو تقييده بأحد القيود الظاهرة ، حيث إنه - كما قلت - متعلق بالمال الذىّ يطغى صاحبه والذى قال الله - تعالى - عنه { المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً }[1] ؛ ولذا فإن - هنا - بالتأكيد - قيدا محذوفا مفهوما وواضحا قيّد به النهى وكأن تقدير الكلام :(لا تفرح بالمال إن الله لا يحب الفرحين بمالهم) ومن أجل ذم هؤلاء لفرحهم فرحاً يطغى على قلوبهم جاء وصف هؤلاء بصيغة { الفرحين } جمع (فَرِح) - بكسر الراء - وهى صفة مشبهة من أوصاف السجيّة كأنه قال : (لا يحب الله الذين يجعلون فرحهم بالمال كأنه سجية فيهم لاتنفك عنهم بحال من الأحوال) .

ومن البلاغة القرآنية اللطيفة فى ختام الآية الكريمة : تأكيد عدم حب الله لهؤلاء { إن الله لايحب الفرحين } وهو تذييل علل به هذا النهى وقد جاء بمنزلة حكمة بالغة أو مثل سائر ؛ ليعم جميع الفرحين الذين يبطرون فى فرحهم بالمال ، وجاء الفعل { لا يحب } مضارعاً منفياً بلا التى للنفى المطلق ؛ ليفيد التجدد والحدوث المطلق فى كل الأزمنة شاملاً كل الفرحين بالمال .

✪ { وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة }

{ وابتغ } الابتغاء طلب ، وقد فضل على مثل : (انفق ما آتاك الله لابتغاء

---

(١) ٤٦ سورة الكهف .

الدار الآخرة) لأن الابتغاء - بزيادة التاء - يدل على الرغبة والمجاهدة والسعى الحثيث ومحالة التوسع فى الإنفاق فى سبيل الله وعدم الاكتفاء بما هو واجب أو فرض ويستلزم ذلك السماحة والبشاشة وعدم المنّ ؛ لأنه إنفاق بطواعية وطلب من المنفق ، ولذا فضل التعبير بفى المفيدة للظرفية بدل الباء المفيدة للسببية - للمبالغة ؛ إذْ أنّ من يدقق النظر يجد فرقاً بين { وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة } و(وابتغ بما آتاك الله الدار الآخرة } إذْ أنّ الأول فيه معنى الإيغال وإكثار الإنفاق بكل أو معظم ماله ؛ لابتغاء الدار الآخرة ، ولايخلو هذا من السببية - أيضا - أما الثانى فيعنى أن يستعين بماله فى سبيل الدار الآخرة ولايلزم منه استكثار إنفاق المال فى سبيلها بل يصدق ذلك ببعضه القليل .

✪ ثم إنه فضل الموصول المشترك { ما } على (الذى) لأن فى الأول عموماً يتناسب مع طلب الابتغاء فى كل أو معظم ماله .

✪ وفى عبارة { آتاك الله } إسناد الفعل إلى فاعله الحقيقى « الله » وفيه بلاغة مقصودة فى هذا المقام ؛ لأن فيه تذكيراً بأن ماله ملك لله ، وأنه من الله فلايحسن أن يبخل أو يطغى ، والعجيب أن ردّ قارون على ذلك وبإزاء هذا الفاعل الحقيقى المعلوم - بإسناد الفعل إلى نائب الفاعل المجهول ؛ إذْ قال : { إنما أوتيته على علم عندى } ولم يقل (آتانيه الله على علم عندى) فهل هناك - فى نظره - فاعل حقيقى آخر للإيتاء غير الله - تعالى - فيكون ذلك إشراكاً ؟! أو أنه يعلم ذلك ويتعمد جهالته فى مقام هذا الحوار حتى لا تلزمه الحجة ؟ وعلى كل حال إذا صرفنا النظر عن بناء الفعل للمجهول « أوتيته » الذى جاء فى مقابلة « آتاك الله » فإنّ مقولته هذه تشهد بكفره لأن فيها إنكار إسناد مافيه من نعم كثيرة إلى الله ، ونسبتها إليه هو وإلى علمه هو .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

✪ { ولا تنس نصيبك من الدنيا }

النصيحة الثالثة هى ألا ينسى حقه من الحلال فى الدنيا بأن يأخذ مايكفيه ويصلحه[1] وهذه النصيحة معترضة بين النصيحة السابقة : { وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة } وبين النصيحة اللاحقة { وأحسن كما أحسن الله إليك } فما السر البلاغى فى هذا الاعتراض ؟ ثم إنه إذا كانت الدنيا فانية والآخرة هى الباقية فمالسّرّ فى التنصيص على هذه النصيحة ؟

السر فى هذا الاعتراض وفي هذه النصيحة - بعد ابتغاء الدار الآخرة فى ماله هو : أولاً أن هذا يوحى بمنهج الاعتدال فى التشريع الإلهى ، إذْ لو نصحه المؤمنون بابتغاء الدار الآخرة فحسب لكان فى ذلك تطرف خارج عن حدود الدين الصحيح ، وفى هذا ردّ علي الذين يترهبون ويزهدون فى الدنيا ويعتزلون مباهجها المباحة : { قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ... }[2] وثانياً : أن أخذ نصيبه من متع الدنيا التى أحلها الله فيه استعانة وتقوية على طلب الدار الاخرة - أيضا - فكأن هاتين النصيحتين معاً من أجل الباقية ، ولهذا تعاقبتا وقدّم ابتغاء الدار الآخرة على الأولى ؛ لأنها هى الباقية وهى المقصودة **ومن يدقق النظر** يجد أنّ النهى عن نسيان نصيبه من الدنيا فى موقعه هذا بين هاتين النصيحتين فى موقعه المتلائم لأنه ربما يشتغل بطلب الدار الآخرة وينسى نصيبه من الدنيا وهذا يؤكد - كما قلت - منهج الاعتدال فى التشريع الإلهّى ، ويرى بعضهم أن فى هذا الاعتراض احتراساً فى الموعظة خشية نفور الموعوظ من موعظة الواعظ ؛ لأنهم لما قالوا لقارون : {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة } أوهموه أن يترك حظوظ الدنيا فلا يستعمل ماله إلا فى

---

(١) ١٩١ جـ ٣ الكشاف للزمخشرى .
(٢) ٣٢ سورة الأعراف .

القربات فأفيد أن له استعمال بعضه فيما هو متمحض لنعيم الدنْيا إذا آتى حق الله فى أمواله .. فأفاد أنّ لك أنْ تأخذ ما أحل الله لك .[1]

أما تعبير : (ولا تترك نصيبك من الدنيا) فليس فيه مايدل على ماسبق بيانه ؛ ولأن الترك قد يكون عن تعمد ، هذا إلى جانب أنه ربما يفهم ضعاف النفوس ضعاف العقيدة من النهى عن ترك نصيبه من الدنيا ضده هو الأمر بحمل ماله معه إلى مثواه الأخير لينفعه فى الدار الآخرة كما كان يفعل الفراعنة الذين عاصرهم قارون ؛ لهذا كان التعبير القرآنى بالنهى عن نسيان نصيبه من الدنيا أبلغ من النهى عن الترك لأنّ فيه دقة وحيطة ونصّاً على المطلوب ودفع توهمّ غير المراد .

✪ ثم لماذا قال : { نصيبك من الدنيا } ولم يقل (نصيبك فى الدنيا) ؟ قال ذلك ولم يقل هذا ؛ ليشير إلى القناعة المطلوبة من العبد فى الدنيا وهى أن يصيب من الدنيا بعضها الذى يَتَبلَّغ به لا كلها حتى لا ينصرف إليها بكُلّيّته فيطغى كما طغى قارون لأن (فى) تفيد الكل أو المعظم لما فيها من معنى الإيغال والاستكثار ؛ ولهذا فإن { مِنْ } هذه المفيدة للبعضية[2] متلائمة تماماً مع سياق الكلام وهذه القصة وتلك دقة غير متناهية وبلاغة راقية . وسبحان من هذا كلامه !!

✪ { وأحسن كما أحسن الله إليك }

يقول بعضهم : إن الكاف فى « كما » للتشبيه والمشبه هو الإحسان المأخوذ من أحسن أى أحْسِنْ إحساناً شبيهاً بإحسان الله إليك ، ومعنى الشبه أن يكون الشكر على كل نعمة من جنسها ، ثم يقول : إن التعليل حاصل من معنى التشبيه وليس معنى مستقلاً من معانى الكاف .[3]

---

(١) ١٧٩ جـ ٢٠ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .
(٢) دخول اللام – هنا – لتقوية تعدية اسم الفاعل إلى المفعول كما فى قوله – تعالى – { والذين هم للزكاة فاعلون } .
(٣) ١٧٩ جـ ٢٠ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .

والذى تميل النفس إليه ماقاله ابن هشام من أن الكاف فى مثل هذا للتعليل[1] كما فى قوله - تعالى - { فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم }[2] أى بسبب أو لأجل هدايته لكم ، وقوله : { فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون }[3] أى بسبب أو لأجل أو لتعليمه إياكم .. وعليه يكون المعنى فى الآية (وأحسن بسبب أو لأجل أو لإحسان الله إليك) بدليل أن الكلام على معنى المقابلة أى أن إحسان العبد المطلق فى مقابل إحسان الله المطلق إليه وبدليل أنَّ المعنى على التشبيه لا يليق بجانب الله - تعالى - إذْ كيف يشبه إحسانَ العبد المخلوق بإحسان الله الخالق والله منزه عن المشابهة ؛ فالذى يقبله العقل أن يكون الغرض أحسنْ إحساناً مطلقاً إلى كل شىء وفى كل شىء بسبب إحسان الله إليك الإحسان المطلق ، وفى ذلك إشعار بأنه يؤدى حقاً واجباً لله - تعالى - عليه ، ويؤيد ذلك - أيضا - أن في ذلك المعنى حثاً للعبد على الإحسان دائماً بسبب أن إحسان الله إليه دائم ؛ إذْ أن نعم الله - تعالى - محيطة به تطالبه بالإحسان المطلق الدائم وهذا مايتفق مع نصيحة المؤمنين له : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » وبخاصة مع التعليق بفى الظرفية المفيدة للمبالغة ، وأما قوله : « ومعنى الشبه أن يكون الشكر على كل نعمة من جنسها » فهذا وجه اخر لا شأن له بالتشبيه البلاغى إلى جانب أن قوله هذا تحصيل حاصل لما سيقوم به العبد من إحسان فى مقابل إحسان الله - تعالى - إليه ، إذْ أن الإحسان فى المال بإخراج حق الفقراء والمساكين فيه ، والإحسان فى نعمة البصر - مثلاً - بغض النظر عن الحرام ، والإحسان فى قتل الحيوان المؤذى ، وفى الذبيحة الحلال بإحسان القتل أو الذبح مصداقاً لقوله - صلى الله عليه وسلم - « إنَّ الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ،

---

(١) ص ١٥١ جـ ١ مغنى اللبيب لابن هشام .
(٢) ١٩٨ سورة البقرة .
(٣) ٢٣٩ سورة البقرة .

وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح ، وليُحدّ أحدكم شفرته ، وليرحْ ذبيحته »[1] والإحسان فى قتل العدو فى عدم المبالغة فى قتله وعدم التمثيل بجسده . هذا .. وتلك نصيحة عامة، معطوفة على نصيحة خاصة هى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » ؛ إذْ أنّ الإحسان عام أو مطلق ؛ ولذا « حذف متعلق الإحسان لتعميم مايحسن إليه فيشمل نفسه وقومه وَوَلِيُّه ومخلوقات الله الداخلة فى دائرة التمكن من الإحسان إليها وفى الحديث : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء » فالإحسان فى كل شىء بحسبه ، والإحسان لكل شىء بماياناسبه حتى الأذى المأذون فيه فبقدره (كما) يكون (الإحسان) بحسن القول وطلاقة الوجه وحسن اللقاء »[2] وهذا كقول عمرو بن معديكرب :-

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم

نطقت ، ولكنّ الرماح أجَرَّتِ

فقد فسره الإمام عبد القاهر بأن المعْنى « أجرّتنى » وعلل لحذف المفعول بأن غرضه أن تتوافر العناية على إثبات الفعل للفاعل ، ويوهم أنّ إجرارها كان عاماً له ولغيره »[3] فكذلك الأمر « أحسنْ » حذف المتعلق به ؛ ليكون عاماً ، ومقتضى ذلك أن يفعل ما أمكن من الخير ، ويجتنب الشر ؛ إذْ أن الإحسان شامل لهما وعلى هذا فعطف الأمر بالإحسان « أحْسِنْ كما أحسن الله إليك » على الأمر : « ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » عطف عام على خاص ؛ إذْ أن الإحسان - كما سبق - مطلق شامل ، أما ابتغاء الدار الآخرة فمقيد أو مخصص بقوله « فيما آتاك الله » فإن

---

(١) الحديث رواه أبو بكر بن أبى شيبة عن اسماعيل بن عليه عن خالد الحذاء عن أبى قلابة عن أبى الأشعث عن شداد بن أوس قال : ثنتان حفظتهما من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قال ..... الحديث (صحيح مسلم جـ ٢ ١٧٧ دار الكتب العلمية) .

(٢) ١٧٩ ، ١٨٠ جـ ٢٠ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .

(٣) ص ١١٢ - ١١٥ دلائل الإعجاز وانظر - أيضا - ٢١٨ جـ١ بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى الطبعة الخامسة المطبعة النموذجية نشر مكتبة الآداب .

المقصود منه هو ماله الكثير الذى كان سبباً فى بغيه وإفساده بل إنه السبب فى سوق هذه القصة فى القرآن ؛ فإن هذا العطف للاهتمام بهذا الخاص ؛ إذْ أنَّ ابتغاء الدار الآخرة بماله فى قمة الإحسان ، ولأجل ذلك أفرد بالذكر وعطف عليه عام يؤكده ويوضحه ويلفت الانتباه إليه ، وهو الإحسان الذى يشمله ويشمل غيره من وجوه الإحسان ، وكأن « ابتغاء الدار الآخرة » الخاص مذكور مرتين[1] مرة مستقلاً ، والأخرى فى جملة الإحسان وفى ذلك إشارة إلى الإهتمام بشأنه ؛ لأنه هو المقصود الأول ؛ لأن الدار الاخرة هى الباقية .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

✪ « ولا تبغ الفساد فى الأرض » .

– وهنا – لم تزد التاء فى الفعل « تبغ » كما زيدت فى الفعل « ابتغ » السابق ، مع أن فى كل منهما طلباً وكل منهما من مادة واحدة والسر فى ذلك ان الابتغاء – كما سبق – فيه مجاهدة فى الطلب ورغبة ملحة فى سبيل الخير ، وهو ابتغاء الدار الآخرة ، والاستكثار من ذلك مرغوب فيه ولذا قال – تعالى – : «وابتغ ...» أما – هنا – فعلى الرغم من أن مادة الفعل الأصلية واحدة إلا أنه بجانب الفساد فى الأرض فلم تزد التاء وبقى الفعل على أصله المجرد للدلالة على مجرد طلب الفساد حتى ولو كان قليلاً ؛ لأنه مرغوب عنه ومنهى عنه ؛ إذْ لا يعقل أن تزاد التاء فيما فيه نهى عن القليل بل أقل القليل منه .

✪ ثم إنه قال : « ولا تبغ الفساد » ولم يقل (ولا تبغ الإفساد ..) ليكون النهى – كما قلت عن مجرد فساد ولو كان قليلاً سواء افتعله قارون بنفسه أو شجّع عليه غيره ، أو قَصَدَ إليه مشاركاً فيه غيره ، أما الإفساد فمفهومه أنه خاص يقع من

---

(١) صاحب كتاب (التحرير والتنوير) يتناقض مع نفسه فى هذا الموقف ؛ إذْ يقول : (وقوله : « وأحسنْ كما أحسن الله إليك » معطوف على قوله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » وداخل فيه) وكلامه هذا يعنى أن الإحسان هو الخاص وأن ابتغاء الدار الآخرة هو العام وهذه شبهة وقعت له ، لأن الإحسان مطلق يشمل الإحسان فى كل شىء ، وعلى رأس ذلك ابتغاء الدار الاخرة ، وإلى كل شىء كما هو مفهوم من نص كلامه المذكور آنفاً ؛ إذْ يقول : « حذف متعلق الإحسان لتعميم مايحسن إليه فيشمل نفسه وقومه وربابه ومخلوقات الله الداخلة فى دائرة التمكن من الإحسان إليها .... الخ (١٧٩ جـ٢٠ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور) .

فاعل خاص ؛ ولذا فإنه لا يكون إلا متعدياً ، أما الفساد فقد يكون متعدياً (فسد قارون فى الأرض) ويأتى لازماً (فسد الطعام) ، ولذا جاء تذييل الآية من المتعدى «إن الله لا يحب المفسدين » وقصارَى القول : فإن قوله : « ولا تبغ الفساد فى الأرض » أبلغ من (ولا تبغْ الإفساد ..) ؛ لأنه نَهْى عما هو أعم وأشمل .

✪ ومما يبعث على التأمل – أيضا – أنَّ قوله : « ولاتبغ الفساد فى الأرض » خاص معطوف على عام هو : « وأحسنْ كما أحْسَنَ الله إليك » ؛ لأن الإحسان – كما اتضح مماسبق – يشمل فعل الخير وترك الشر ، فلِمَ هذا العطف مع أنه داخل فى الإحسان؟

العطف – هنا – للاهتمام بشأن الخاص ؛ لأن فساد قارون أو إفساده هو الذى جعله يخرج عن نهج الله ويعارض موسى وهارون ويحسدهما على النبوة ويصف موسى بأنه ساحر بقوله : « ليس هذا بأقل مما تصنع من السحر » ويمتنع عن دفع الزكاة ، ويؤكد ذلك بتسليط المرأة البغى لتتهمه بنفسها ، بل يكاد إفساده يكون هو المقصود الأول من هذه النصائح ، بل هو سبب سوقها إليه وسبب الخسف به وبداره – وأيضاً – هذا العطف زيادة فى تأكيد الإحسان بالنهى عن ضده وللتنصيص على نبذ الفساد حتى يستقر فى الذهن أكثر ، وليكون أكثر تنفيراً للنفس ، لهذا لزم التنبه الخاص بتسديد النصح إليه بعدم الفساد فى الأرض – بعد دخوله فى العام – «وأحسن كما أحسن الله إليك» ؛ ليلفت نظر قارون إليه ليقلع عن إفساده .

✪ أما هذا التذييل فقد صيغ صياغة عامة على طريقة الحكمة أو المثل السائر ؛ ليسرى مسراهما فيكون تأثيره عاماً يشمل قارون وغير قارون من المفسدين فى كل زمان ومكان « إن الله لا يحب المفسدين » فعدم حب الله – تعالى – للمفسدين ناموس عام فى الديانات السماوية ولذا أكد بإنَّ واسمية الجملة ، ومجىء الجمع «المفسدين» والفعل مضارعاً منفياً بلا النافية الدالة على النفى المطلق ؛ ليدل المضارع على التجدد والحدوث المطلق ، فى هذا كله تأكيد عام لعدم حب الله للمفسدين ؛ فيشمل قارون بطريق أوْلوِىّ .

✪ ثم ما السر البلاغى فى ترتيب هذه النصائح - كما وردت فى التنزيل الحكيم؟

من يدقق النظر يجد أن هذا الترتيب مقصودٌ وله أهداف بلاغية لطيفة مؤثرة ؛ فقد جاءت مواعظ المؤمنين كما اقتضتها الحال فى ترتيبها وبلاغتها وتأثيرها فى النفس فقد بدأ المؤمنون بنصيحته بعدم الفرح بالمال لأنه سبب طغيانه وضلاله وبغيه فى الدنيا الفانية وأكدوا له ذلك بأن الله لايحب الفرحين ، ثم ثنوا بما هو أحرى أن يفرح به فرح سرور - على طريقة أسلوب الحكيم - وهو مايجب أن يكون عليه الأغنياء فى الدنيا بأن ينتهزوا فرصة غناهم ويبنوا لهم بهذا المال مجداً وجاهاً فى الدار الباقية حيث لا بطر ولا أشر ولا طغيان « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » وولى نصيحته بعدم الفرح بالمال نصيحته بما يتعلق بهذا المال من حقه فى الدنيا « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وذلك لأن بناء الآخرة أبقى ، ولأن فى تمتعه بحلال الدنيا عوناً له على الدار الآخرة ثم قدموا له نصيحة عامة هى قولهم : «وأحسن كما أَحْسَنَ الله إليك » وهذه تشمل فعل الخير والكف عن الشر ، ثم عطفوا هذه النصيحة العامة علي نصيحة خاصة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » لمزية فى هذا الخاص وهى أن هذا الابتغاء هو العمود الفقرى فى تصريف ماله تصريفاً صحيحاً ؛ إذْ يجب أن يستغل المال فى الدنيا لبناء الآخرة فأفرد هذا الخاص لينبِّه عليه ويلفت الأنظار إليه للاهتمام بشأنه وتطبيقه ، ثم عُطِفَ على هذا العام (الإحسان) نصيحة خاصة هى « ولا تبغ الفساد فى الأرض » ؛ إذْ أن عدم الإفساد .. داخل فى الإحسان ، **ومن يدقق النظر** يجد أن عطف هذا الخاص لخصوصية فيه وهى نهيه عما كان سبباً فى خروجه عن صراط الله وعن دينه وحسده لموسى وهارون وتأليب بنى اسرائيل عليه وامتناعه عن دفع الزكاة ، وتسليط البغى عليه لقذفه بنفسها ، وادعائه أن ماأوتيه من مال إنما هو بسبب علمه هو : ألا ؟ وهو الفساد ، ولذا أكد النهى عنه بقوله : « إن الله لايحب المفسدين » .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

✪ « قال : إنَّمَا أُوتيتهُ على علم عندى » .

قلت : إن الفعل (قال) هو عامل الظرف (إذْ) فى قوله : « إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين » وبينت الأسرار البلاغية فى ذلك[1] ، والذى يلفت النظر أنَّ قارون بإزاء ردّه على نصائح المؤمنين أو بإزاء نصيحتهم : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » أو بإزاء « وأحسنْ كما أحسن الله إليك » أن يكون ردّه بجحود نعمة الله - تعالى - ونسبتها إلى نفسه هو وإلى علمه هو ، وأن يستعمل فى ذلك أسلوب القصر بإنما التى تستعمل - أصلاً - فى تقرير ماهو معلوم ، أو لا ينكره المخاطب ولكنه استعمل هذا الطريق - هنا - فى تقرير شىء ينكره ناصحوه عليه وهو اعتقاده أن ما أوتيه على علم من عنده ، وإنْ دل هذا على شىء فإنما يدل على شيئين معاً هما : أولاً : وثوقه بأن ماأوتيه بسبب علمه - حقاً - ولهذا استعمل (إنما) التى تستعمل فى المعلوم ؛ ليقصر « ماأوتيه » على علمه هو ، وفى هذا غرور كثير ، ولهذا قصر صفة الإيتاء على علمه الخاص ، وفى ذلك دلالة واضحة على اعتقاده الحقيقى بأن ماهو فيه من الغنى الفاحش إنما يرجع فضله إليه هو وإلى علمه هو لا إلى سبب آخر كما هو مقتضى أسلوب القصر الذى يتضمن إثبات شىء لشىء ونفى هذا الشىء عن شىء آخر ؛ فإذا أثبت أن « ماأوتيه » إنما هو بسبب علمه انتفى أن يكون ماأوتيه بسبب آخر وهذا السبب الآخر إنما هو إرادة الله - تعالى - المعطى الوهاب - وقدرته ؛ ولذا فإن فى مقالته هذه كفرا صريحاً ونكراناً واضحاً لنعمة الله وجحوداً بفضله عليه ، وهذا يؤكد خروجه عن دين الله ، أو نفاقه من أول الأمر . وثانياً : استعماله (إنما) التى تستعمل فى المعلوم أو فى الذى لاينكر لا يخلو هذا من التهكم بالذين نصحوه كأنه يقول لهم : كيف تجهلون أو تنكرون شيئاً واضحاً معلوماً ؟ !!

ثم إن هذا القصر قصر قلب ؛ لأنه قلب به اعتقاد من نصحوه ؛ حيث يعتقدون أن ماأوتيه إنما هو من عند الله ، ولهذا قالوا له : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة

---

(١) تراجع صـ ١٥ ، ١٦ .

« فكان ردّه عليهم بليغاً مطابقاً لاعتقادهم هذا ومن جنس أسلوبهم ؛ إذْ قال : « إنما أوتيته على علم عندى » فقلب عليهم اعتقادهم بذلك .

✪ ثم لماذا قال : « على علم » ولم يقل (بعلم) مع أن الباء للسببية وقد تكون هى المناسبة هنا أى بسبب علم عندى وذلك لإفادة « على » التمكن والتحقق فيكون المعنى : ماأوتيت المال الذى ذكرتموه فى نصيحتكم فى حال من الأحوال إلا فى حال تمكنى من علم راسخ[1] .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

✪ « أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً » ؟! .

يقول العلماء[2] : فى هذا الاستفهام وجهان : **الأول** : يجوز أن يكون هذا إثباتاً لعلم قارون بأن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه فى التوراة وأخبر به موسى – عليه السلام – وسمعه من حفاظ التاريخ كأنه قيل له : أو لم يعلم فى جملة ماعنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته .

الثانى: يجوز أن يكون نفيا لعلمه بأن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه .. كأنه لما قال : « أوتيته على علم عندى » تصلَّف بالعلم وتَعَظَّم به ، قيل : أعنده مثل ذلك العلم الذي رأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين ؟!

وتبع الزمخشرى والرازى كثيرون دون تفصيل لوجهة الإثبات أو النفى – أيضا – كما فعلا – ومن كلامهم يؤخذ الآتى : **أولاً** : أن أصل الكلام : (أعلِم ذلك العلم ؟ ... وألَمْ يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه ؟ ...) ؟!

---

(١) يقول الزمخشرى ١٩١ جـ ٣ الكشاف : « كان أعلم بنى اسرائيل بالتوارة ، وقيل بعلم الكيمياء .. وقيل : العلم هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة (صناعة الذهب والتجارة فيه) وسائر المكاسب » وقال مثل ذلك الفخر الرازى ١٧ جـ ٢٥ المجلد الثالث عشر .

(٢) الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب ١٧ جـ ٢٥ المجلد الثالث عشر وانظر أيضا الكشاف للزمخشرى ١٩١ جـ ٣ .

ثانياً : أن المقصود بالإثبات إثبات علمه فى الجملتين أى فى الحالتين (حالة علمه الأول وحالة علمه بالثانى) وأن المقصود بالنفى هو نفى علمه الثانى وهو (أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) على معنى : (عَلِمَ ذلك ولم يعلم ذلك) .

ولو دققنا النظر وأجَلْنَا الفكر لوجدنا أن فى هذه العبارة محذوفين : جملة إثباتية ، وهمزة استفهام ، وحذف كل منهما لدلالة المذكور من جنسه عليه – أما الجملة الإثباتية المحذوفة فهى مدخول الهمزة المذكورة والأصل : (أعلِم ذلك العلم الذى ادعى أنه أوتى ماله عليه) على معنى (قد علم ذلك العلم ...) وهذا يشبه ماأثبته المبرد فى الكامل من قول الشاعر : أأنت أخى مالم تكن لى حاجة .... على معنى أنت أخى مالم تكن لى حاجة[1] .

أما همزة الاستفهام المحذوفة فهى الداخلة على الجملة الثانية المذكورة والأصل (... وألم يعلم أن الله قد أهلك ...) ؟ وتكون الجملتان مع الاستفهامين (المذكور والمحذوف) كل منهما إثبات للخبر (خبر علمه) والمعنى على الإثبات فيهما : (قد علم ذلك العلم الذى ادّعى أنه أغناه ، وعلم – أيضاً – أن الله قد أهلك من قبله ...) وذلك لأن الاستفهام التقريرى الداخل على منفى يجعله مثبتاً[2] فيكون : (ألم يعلم أن الله قد أهلك من قبله ...) أىَ علِم ذلك مثل « ألم يجدك يتيماً فآوى »[3] «ألم نشرح لك صدرك »[4] « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل » ؟[5] « أليس الله بكاف عبده »[6] ولذا فإن الإجابة تكون ببلَى : (بلى وجدتَى .. بلى شرحت لى صدرى .. بلى علمتُ .. بلى جعلت كيدهم فى تضليل ..

---

(١) ١٠٨ البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د. محمد أبو موسى : نشر دار الفكر العربى . طبع دار الحمامى – نقلا عن الكامل للمبرد ١٠٣ جـ ١ .

(٢) ٢٦٤ جـ ٢ الخصائص لابن جنى . تحقيق محمد على النجار – عالم الكتب الطبعة الثالثة ١٤٠٣ – ١٩٨٣ م .

(٣) ٦ سورة الضحى . (٤) ١ الشرح .

(٥) ١ ، ٢ سورة الفيل . (٦) ٣٦ سورة الزمر .

بلى إن الله كاف عبده .. بلى إنه قد علم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة ... ولهذا لا يمكن أن تكون الإجابة بنعم وإلاّ كانت موافقة على النفى التالى للهمزة ، هذا .. وكان مقتضى علم قارون ألا يغتر بكثرة ماله وقوته وهو يعلم أنه تحت قدرة الله – تعالى – ورحمته إن شاء أهلكه كما أهلك مِنْ قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً .

أما عن الواو على هذا الوجه فهى عاطفة لجملة علمه الثانية على جملة علمه الأولى عطف إثبات على إثبات ، أى عَلِمَ هذا العلم .. وعَلِمَ – أيضاً – هذا العلم ، وكان مقتضى علمه ألا يغتر أما على أن الكلام على نفى علم قارون بأنّ الله أهلك من قبله من القرون ... فإنّ الجملة الأولى هى الإثباتية المحذوفة الموضحة – آنفاً – دخل عليها همزة الاستفهام المذكورة والمعنى عليها – كما سبق – (عَلِمَ ذلك العلم الذى ادعى أنه أغناه) .

وأما الجملة الثانية فليس فيها همزة استفهام محذوفة وإنما دخل عليها نفى «لم يعلم ..» والمقصود (بالمعنى على النفى) هو النفى فى الجملة الثانية والأصل عليه : أعَلِمَ ذلك العلم الذى ادعى أنه أغناه ولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله ... وأما الواو على هذا فهى للحال داخلة على الجملة التى تحكى حال قارون والمعنى عليه : قد عَلِمَ ذلك العلم ... والحال أنه لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون ...

والاستفهام على هذا تقريرى إنكارى تعجيبى تهكمى أما أنه تقريرى فهو بمعنى إثبات وتقرير ماعليه من العلم الذى ادعى نسبة غناه إليه ولذا آل المعنى إلى (قد علم ...) وأما أنه إنكارى فلأنه ينكر عليه بمعنى يأخذ عليه أن يعلم هذا العلم الذى قال إنه سبب مافيه من الغنى الفاحش وفى الوقت نفسه لايعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولهذا فإنه – أيضا – تعجيبى

يعجِّبُ به السامعين من قارون على تقصيره وجهله بهذه المعلومة على الرغم من هذا العلم الذى ادعى نسبة ماله إليه وهو فى الوقت نفسه يحمل تهكماً منه وسخرية به لغفلته إنْ كان غافلاً - ، إذْ كيف يجهل ذلك على الرغم من علمه هذا .

✪ و« أنَّ » صلة « يعلم » وهى ومادخلتْ عليه سَدَّتْ مَسَدَّ معمولى « يعلم » وقد اشتركت مع « قد » فى تأكيد إهلاك الله لمن هم أشد من قارون ؛ لئلا يتطرق إلى ذلك أدنى شك ، وزاد ذلك تأكيداً بالقصر بتقديم المسند إليه على المسند : «الله قد أهلك» فقد قصر إهلاكهم على الله - تعالى - وحده ، وهو قصر حقيقى تحقيقى ؛ إذْ لايوجد مهلك آخر لخلقه - سبحانه - إلا هو .

✪ و« مِنْ » الجارة تفيد الابتداء وهو يعنى أن إهلاك الطاغين إنما ابتدأ من أول قرن فى الزمان من عمر البشرية من لدن آدم إلى زمن قارون ، وجمع « القرون » فيه إشارة إلى أنه لم يخل قرن من إهلاك أمثال قارون وأشد منه وأكثر مالاً وجمعاً .

✪ و« مَنْ » فى « مَن هو أشد ... » موصول مشترك وفضل على الموصل الخاص (الذى) ليكون شاملاً للمفرد والمثنى والجمع مذكراً أو مؤنثاً وكأن المعنى : (أهلك كل من اتصف بذلك فى الأزمان الغابرة) ولاريب أن ذلك أعم وأشمل . و(أشد) و(أكثر) كل منهما فعل تفضيل والمفضل عليه هو قارون ، والمفضل من أهلك فى القرون السابقة ، والمفضل فيه القوة والجمع .

✪ و« قوةً » و« جمعاً » تمييز لأفعل التفضيل ، ولم يقل من هو أكثر منه مالاً ؛ ليشمل القوة فى المال والقوة فى الأنصار ؛ ولذا قال : « وأكثر جمعاً » ؛ إذْ يقال : إنه كان له نحوُ مائتين وخمسين رجلاً يناصرونه ويقوونه فخسف الله بهم الأرض مع قارون ولم ينفعوه ؟ «لم تكن له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين» .

✪ وهذه العبارة : «أوَ لم يعلم ..... وأكثر جمعاً » على مافيها من البلاغة القرآنية العليا - على ماسبق بيانه - فيها أيضاً لون آخر بلاغى يمس المعنى والنفس ألا وهو (أسلوب الحكيم) الذى سببه أن قارون تجاهل فضل الله عليه فى

هذا المال وادعى أنه بعلمه ، كما تجاهل مصدر هذا العلم ، والصفات التى تؤهل الإنسان لتحصيل العلم أو التفوق فيه كل ذلك هبة من الله ولكن قارون يريد أن يهدم الأساس الذى بنى عليه المؤمنون كلامهم بهذه المغالطة أو التجاهل أوَ بتَر أهم أجزاء التسلسل المنطقى فى الكلام بقوله : « إنما أوتيته على علم عندى » ولذا نجد القرآن الكريم يرّد عليه بالتجاهل - أيضاً - ممايسميه علماء البلاغة (أسلوب الحكيم) فيتجاهل ادعاءه أن المال من علمه هو وليس من عند الله لأن هذا التمويه قد يخُدع به بعض ضعفاء العقول ، وكأن القرآن الكريم بدل أن يحاوره فى مصدر المال يريد أنْ يحاوره فى مصير هذا المال كأنه يسأله : إذا كان علمك هو الذى أكسبك هذا المال فهل يستطيع هذا العلم أن يمنعك أو يمنع مالك من إهلاك الله ، وكأن القرآن - أيضا - يقول له : إذا خفيت عليك الإجابة فإن الجواب فى أخبار السابقين الذين أهلكهم الله مع كونهم أقوى منك فيما تدعيه وأكثر جمعاً من مالك الذى غرّك وأفسدك . هذه الأخبار فيها الجواب[1] .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

✪ « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » .

الواو هى واو الحال ، والجملة حال من قارون وأمثاله من الطغاة المجرمين فى القرون السابقة وحتى قيام الساعة ، ولذا صيغت هذه العبارة على طريقة المثل السائر لتعمهم جميعاً ، ولذا فإن المعنى : (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله .... والحال أنه لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) و(لا) للنفى المطلق ، والفعل « يسأل » مبنى للمجهول ؛ ليعم كل السائلين أى لايوجد أحد يسأل المجرمين عن ذنوبهم على معنى أن المجرمين لايسألهم أحد عن ذنوبهم لفحشها وشهرتها وعِلْم الله بها واستحقاقهم العذاب عليها بالإجماع ؛ فليس هناك داعٍ لأنْ يناقشوا أو حتى يستعتبوا فيها ؛ ولذا فإن الزمخشرى[2] يجعل العبارة تهديداً للمجرمين بالعذاب إذ

(١) ١٠٢ أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم د. عبد الحليم حفنى الطبعة الثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

(٢) ١٩١ جـ٣ الكشاف .

قال : « لما ذُكّر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منه وأغنى قال على سبيل التهديد : والله مطلع على ذنوب المجرمين لايحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم ، وهو قادر على أن يعاقبهم عليها كقوله – تعالي – « والله خبير بما تعملون »[1] « والله بماتعملون عليم »[2] ومعنى هذا أن العبارة كناية عن علم الله – تعالى – بذنوبهم ، وهذا كناية عن عقابهم على إجرامهم فهى كناية بواسطتين [3] .

و« المجرمون » نائب الفاعل المجهول ، وقدم عليه الجار المجرور « عن ذنوبهم » للاهتمام بشأن هذه الذنوب ؛ إذْ أنها هى السبب الذى أوصلهم إلى مرحلة الإجرام ، وربما الكفر ؛ فلهذا قدم ، ولفظ « المجرمون » له وجاهته وبلاغته من ناحيتين : أنه أوقع وأشد تأثيراً فى النفس من لفظ « الظالمين » ؛ لأن فيه معنى الظلم وزيادة ، ولأنه أعم من الكفر والظلم .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

✪ « فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فى زِينَتِهِ قَالَ الذينَ يُرِيدون الحَيَاة الدُنيـا : ياليْتَ لنا مِثْلَ ماأُوتِىَ قارونُ ؛ إنَّه لَذُو حَظٍّ عَظيم » .

(الفاء) عاطفة لجملة « فخرج على قومه فى زينته » على جملة « قال إنما أوتيته على علم عندى » وعليه يكون قوله « أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله .... ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » معترض بين المتعاطفين والسر في هذا الاعتراض هو الردّ المباشر على مقولة قارون ؛ إذْ لايعقل أن يعطف قوله : « فخرج على قومه ... » مباشرة ثم يردّ بعد ذلك على مقولته وينكر عليه ويتعجب ويتهكم .. بعد ذلك وإلاّ حصل فاصل طويل غير مناسب بين المتعاطفين يؤدّى إلى التعقيد اللفظى الذى بدوره يبهم المعنى أو يعقده ، ولا يليق ذلك ببلاغة القرآن الكريم التى أعجزت أرباب الفصاحة والبلاغة .

---

(١) ١٣ سورة المجادلة و١١ المنافقون .
(٢) ٢٨٣ البقرة .
(٣) ١٨١ جـ ٢٠ التحرير والتنوير .

و(فاء) العطف هذه تفيد الترتيب والتعقيب ، إذْ أفادت أن خروج قارون فى زينته جاء مرتباً وعقب ردّه على الناصحين بقوله : « إنما أوتيته على علم عندى » مباشرة دون تراخ فى الزمن ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن قارون أخذته العزة بالأثم بعد سماعه هذه النصائح العظيمة فتكبر وتعالى وعاند فخرج على قومه فى زينته ، وسبحان من هذا كلامه !!

✪ أما السر البلاغى فى استعمال « على » فى قوله : « على قومه » بدل (إلى) فلتضمينه معنى النزول إشارة إلى أنه خرج فى تعال وترفع »[1] .

✪ « فى زينته » أفاض المفسرون فى وصف هذه الزينة وتعددت أوصافهم ، ومهما قيل فيها فإن الإجمال فى هذا التعبير القرآنى أجمع وأبلغ ؛ لأن الإجمال يترك الباب للعقل مفتوحاً ليذهب فى ذلك كل مذهب ؛ وليتصور هذه الزينة كما يَحْلو له ومهما بالغ العقل أو الخيال فى صفها فإن وصفه محتمل ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى إيجاز القصر البليغ النادر فى تعبير : « فى زينته » .

✪ وقوله : « قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم » إجابة عن سؤال أثارته فى النفس العبارة السابقة : « فخرج على قومه فى زينته » تقديره : (ماذا كان موقف القوم حين رأوا موكب الزينة هذا ؟) فجاء الجواب : « قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولايلقاها إلا الصابرون » فبين الجملتين شبه كمال اتصال ؛ إذْ بين الجملة التى أثارت هذا السؤال وبين هذا الجواب اتصال لازم وهو اتصال الجواب بالسؤال ؛ إذْ أن هذا غير ذاك لكن كل منهما لايستغنى عن الآخر ولذا فصل بينهما (لم يعطف) لما بينهما من شبه كمال اتصال .

✪ « يالَيْتَ لنا مِثْلَ ماأُوتِىَ قارونُ ؛ إنّه لَذُو حَظٍّ عَظيم » .

---

(١) ١٨٢ جـ٢٠ التحرير والتنوير .

(يا) حرف نداء الغرض منه التنبيه والمبالغة فى التمنى و(ليت) أداة تمنٍّ ، و« مثل » اسمها ، وخبرها محذوف تعلق به الجار والمجرور « لنا » ، والتقدير : (ياليت مثلَ ماأوتى قارون موجود لنا) .

وفى تقديم خبر ليت على اسمها ملحظ بلاغى نفسى ؛ إذْ قدم المتمنون مايهمهم « لنا » للاهتمام بشأن أنفسهم فأسرع ضميرهم إلى التقدم بدافع نفسى ، و« مثل » كما هى اسم ليت فهى فى الوقت نفسه أداة تشبيه ، والمشبه به (ماأوتى قارون) ، والمشبه محذوف اختصاراً والمعنى على الأصل (ياليت لنا مالاً وجاهاً مثل ماأوتى قارون) ، وحذف المشبه لكونه مفهوماً من سياق الكلام وللقرينة الدالة عليه بالمشبه به وأداة التشبيه ، لهذا كان حذفه أبلغ من ذكره ، وليصب التمنى على المثلية مباشرة وهو من بدائع التشبيه القرآنى وتفرّده ؛ إذْ أنه حذف المشبه ونابت منابه صفته (مثل) التى هى فى الوقت نفسه - كما قلت - أداة تشبيه وكأن أداة التشبيه هى المشبه ؛ لأنها حلت محله مبالغة[1] لكونها صفته ، وإنْ دلت هذه المثلية على شىء فإنما تدل على أنهم مؤمنون لأنهم يغبطون قارون ولا يحسدونه ؛ إذْ أنهم يطلبون غِنىً مشابهاً لغناه ولايتمنون زواله ليحلّ بهم ، بل مما يدل على إيمانهم أيضاً نصيحة العلماء لهم « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » بل قولهم بعد الخسف « لولا أنْ منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون » .

و« ما » الموصول أبلغ من (الذى) - هنا - لما فيه من فخامة وتهويل يتناسبان مع ماأوتى قارون من المال الكثير والجاه العظيم ، وبناء الفعل « أوتى » للمجهول من قبل الذين تمنوا مثل ماأوتى قارون ، وبناء نفس الفعل للمجهول - أيضاً - من قبل قارون إنْ لّ على شىء فإنما يدل على أنهم نظروا إلى الأسباب

---

(١) ليس ما فى الاية من التشبيه كالمثالين : (مثلك كريم) (مثلك لا يبخل) لأن (مثل) فيهما كناية عما أضيفت إليه ؛ ولهذا فالمعنى فى المثالين : أنت كريم - أنت لاتبخل ووجه الكناية فيهما أنه إذا كان مَنْ على صفتك كريم ، أو لايبخل فبالأولى أن تكون أنت كريماً - أو الأولى ألا تكون بخيلاً ولا يتأتى ذلك فى الاية الكريمة لخلوها من هذا القصد . ينظر المطول ١١٩ ، ١٢٠ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ وصـ ١٠٠ ، ١٠١ دلائل الاعجاز لعبد القاهر تصحيح السيد رشيد رضا . الطبعة السادسة مكتبة ومطبعة صبيح ١٣٨٠ هـ .

الظاهرة - أيضا - كما نظر قارون وكأنها لولاها ماكان قارون فى هذا الغنى الفاحش وربما يؤيد ذلك قولهم بعد الخسف « لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون » فربما كان ندمهم هذا على عدم نسبة الفعل إلى خالق الأسباب وإلاّ لقالوا : (ياليت لنا مثل ماأتَى الله قارون) .

وموقف قارون هذا والذين تمنوا مثله موجود كثيراً فى زماننا هذا - نعوذ بالله من فتنة المال ، وصدق الله « لكيلا لا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور »[1] .

✪ وجملة : « إنّه لذو حظ عظيم » تعليل لتمنيهم السابق أى لأنه ذو حظ عظيم ، وتأكيده بإنّ واللام واسمية الجملة فيه دليل على رغبتهم الأكيدة فى مثل ماأوتى قارون .

✪ « وقال الذِينَ أوتُوا العِلْمَ : وَيْلَكُم : ثَوَابُ اللّه خَيرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ » .

فى قصة قارون فعل واحد استعمل ثلاث مرات منهما اثنتان صادرتان من قارون ومن الذين تمنوا مكانه ؛ فقد قال قارون : « إنما أوتيته على علم عندى » وقالوا : « ياليت لنا مثل ماأوتى قارون » ، أما الثالثة فتتحدث عن العلماء الذين نصحوا من تمنوا ، قال الله - تعالى - « وقال الذين أوتوا العلم ... » على أنه كان من الممكن أن يقال حاشا لله - (وقال العلماء ...) فلماذا فضل « الذين أوتوا العلم » عليه ؟ كأن القصة عمدت إلى المقارنة بين موقف من أوتى الدنيا ومن تمنوا أن يؤتوها مثله ، وموقف من أوتى العلم : الفريقان الأوّلان لم يستعملوا عقولهم ، ولم يستعملوا العلم فى توجيه أنفسهم ولم تدم الدنيا أو لا تدوم لهم ، والفريق الثالث وهو فريق العلماء العاملين لم يُعَط الدنيا ولكن أعطى العلم فأرشد العلمُ عقولهم إلى الطريق الصحيح وهو أن الآخرة خير وأبقى من الأولى ، ولذا قالوا لمن تمنوا ... « ثواب الله

(١) ٢٣ سورة الحديد .

خير لمن آمن وعمل صالحاً ولايُلقَّاها إلا الصابرون » وكأن القرآن الكريم يريد أنْ يقول : ميراث العلم خير وأبقى من ميراث المال ؛ ولهذا فهو يترك لعقول المتدبرين أن يتدبروا ويقارنوا بين من أوتى المال فأطغاه هذا المال وأخرجه من دينه ثم أهلكه وهلك ولم ينفعه ، وبين من أوتى العلم فأرسخه العلم فى الدين ومكنه من اليقين وأودعه فى عداد الصابرين الذين يتلقون الموعظة بصدر رحب على عكس قارون الذى نفر من نصائح المؤمنين وأخذته العزة بالإثم وقال : « إنما أوتيته على علم عندى » .

هذا .. إلى جانب أن هناك - أيضا - مقارنة خاصة بين علم قارون « إنما أوتيته على علم عندى » وعلم العلماء العاملين « الذين أوتوا العلم » وكأنّ التنزيل الحكيم أراد أن ينبه على التفرقة بين إيتاء علم ، وإيتاء علم فالعلم الأول يتصل بأمور الدنيا وقد يكون هو مانص عليه العلماء من كونه علماً يتصل بأمور التجارة والدهْقَنة أو علم الكيمياء فليس فيه مايتصل بالعقيدة أو الأخلاق أو القناعة أو التهوين من شأن الدنيا ، والتعظيم من شأن الآخرة وكأن (أل) هذه فى العلم الثانى أل العهدية التى تعين هذا العلم بأنه الخاص بأمور الدين والإيمان والصبر والعمل الصالح وهو مانبّه عليه الذين أوتوا العلم بقولهم : « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولايلقاها إلا الصابرون » وكأن القرآن الكريم يريد - أيضا - أن يقول : وقال الذين أوتوا العلم المعتدّ به أو العلم الباقى أو المصلح للنفوس الموجه إلى طريق الله المستقيم ... وإنْ دل هذا على شىء فإنما يدل على قيمة وضرورة تعليم العلوم الدينية في جميع مؤسسات التعليم وأن كل تقصير فى ذلك يؤدى بنا إلى السبل المعوجة ثم إلى الهلاك وصدق الله « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[1] .

✪ « ويلكم » أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل (هنا فى التعجب المشوب) بالزجر والردع والبعث على ترك مالا يرتضى[2] لأن الذين أوتوا العلم يتعجبون من

---

(١) ١٥٣ سورة الأنعام .
(٢) ١٩٢ جـ ٣ الكشاف .

تعلق نفوس أولئك بزينة الحياة الدنيا واغتباطهم بحال قارون دون اهتمامهم بثواب الله الذى يستطيعون تحصيله بالإقبال على العمل بالدين[1] والقرآن الكريم كثيراً مايفضل هذا التعبير فى مثل هذا الموقف مثل : « ويل للمطففين »[2] « ويل لكل همزة لمزة »[3] « ويل لكل أفاك أثيم »[4] .

✪ « ثَوَابُ اللَّه خَيرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً » .

تعليل من العلماء العاملين لزجرهم وردعهم والتعجب من طلبهم كأنهم قالوا : زَجْرنا لكم وتعجبنا من شأنكم ؛ لأنكم تتمنون الفانى وتتركون الباقى وهو ثواب الله الذى هو خير لمن آمن وعمل صالحاً .

✪ والموصول « مَنْ » فى « خير لمن آمن .. » موصول مشترك وفضل عن ضمير خطابهم « خير لكم » وعن الموصل الخاص (الذى) أو (الذين) ؛ لأنه أعم ؛ إذْ يصلح للجميع مفرداً أو مثنى أو مجموعاً ذكوراً أو إناثاً ، وصدق الله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون »[5] .

✪ وقوله : « آمن وعمل صالحاً » فيه تعريض وردٌ على موقف قارون من الدين والإيمان ؛ إذْ أنه آمن برسالة موسى وهارون ولكنه لم يعمل صالحاً ؛ بل تخبرنا القصة بأنه بغى عليهم ورفض نصائح الناصحين ، وطغى أكثر وادعى أن ماله بسبب علمه هو ونزع بذلك - طغياناً - فضلَ الله عليه ولهذا كان قول الذين أوتوا العلم « لمن آمن وعمل صالحاً » فيه تعريض بموقف قارون وتبصير وتنبيه لمن تمنوا مثل ماأوتى قارون ، وكأنهم يقولون لهم : انظروا حال قارون الذى آمن وفسق وضل فبغى .

---

(١) ١٨٤ جـ ٢٠ التحرير والتنوير .
(٢) ١ سورة المطففين .
(٣) ١ سورة الهمزة .
(٤) ٧ سورة الجاثية .
(٥) ٩٧ سورة النحل .

✪ « وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ »[1] .

« لا يلقاها » أى لايوفق لها[2] ويتقبلها بصدر رحب والضمير (ها) الصحيح فى نظرى أنه يعود إلى أوضح مذكور وهو كما قال بعضهم للكلمة التى تكلم بها هؤلاء العلماء « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » والجملة حالية ، والمعنى (ثواب الله خير ... والحال أنه لا يلقاها إلا الصابرون) ، وفى نظرى أن هذه الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى أى اصبروا تتلقوها والسر فى مجيئها على صورة الخبر ؛ ليسوق الكلام مساق الحكمة فى شبه تقرير عام مسلم به عن الصابرين جميعاً فى أىّ مشاق أو فى أىّ محنة فى كل زمان ومكان ولو جاءت فى صورة الطلب الصريح (اصبروا تتلقوها) لكانت نصيحة خاصة بهم .

وهذه العبارة زيادة فى نصح من تمنوا مثل ماأوتى قارون أنْ يتلقوا الموعظة بصبر وجلد ولايكونوا كقارون ، كما أن فيها تعريضاً بقارون وأمثاله لأنه لم يستطع أن يتلقى موعظة الناصحين بصبر وحكمة وجلد ولكنه تعجل وكان ماكان .

✪ ثم إنه فى الفعل « يُلَقَّىٰ » استعارة تصريحية تبعية سرها البلاغى هو تصوير تقبل كلمة العلماء بصبر وجلد بصورة حسية تتمثل فى الذهن أوضح وتتأثر بها النفس أكثر ، وذلك أنه شبه تقبل كلمة العلماء « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » والعمل بمقتضاها فى صبر وجلد وبصدر رحب بتلقى الشىء الحسى بكلتا اليدين ثم استعير المصدر للمصدر واشتق من المستعار الفعل المضارع « يُلَقَّىٰ » الذى صار بعد الاستعارة بمعنى (يتقبل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية

---

(١) يقول الزمخشرى فى الكشاف ١٩٢ جـ ٣ الضمير فى « ولا يلقاها » للكلمة التى تكلم بها العلماء « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » أو للثواب بمعنى المثوبة ، أو للجنة ، أو للسيرة والطريقة وهى الإيمان والعلم الصالح » ويقول الفخر الرازى ١٨ جـ ٢٥ الضمير يرجع إلى مادل عليه قوله : « آمن وعمل صالحاً » يعنى هذه الأعمال لايؤتاها إلا الصابرون ، ثم أورد قول الزجاج : يعنى ولا يُلَقَّى هذه الكلمة وهى قولهم : « ثواب الله » خير إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ماقسم من المنافع والمضار » والتفسيرات هكذا متقاربة وتكاد تكون واحدة .

(٢) الفخر الرازى ١٨ جـ ٢٥ مفاتيح الغيب .

والجامع بينهما أن فى كل منهما قبولاً بمجاهدة وجلد وصبر والقرينة المانعة من إرادة العنى الأصلى للتلقى هو استحالة حصول التلقى الحقيقى : بكلتا اليدين للكلمة[1] ولهذا كان السر البلاغى هو تصوير تقبل الكلمة بصورة حسية تتمثل فى الذهن وتتأثر بها النفس ...

✪ ومن البلاغة اللطيفة للإقناع أن يسوق الذين أوتوا العلم هذه العبارة بأسلوب القصر بالنفى والاستثناء حيث قصروا أو حصروا تلقى الموعظة بصبر وجلد وحكمة فى الصابرين ؛ لأنّه لا يتلقى الموعظة بحكمة وتقبل وجلد إلا الصابرون ، وهو قصر إضافى أي بالنسبة لغيرهم كقارون وأمثاله الذين لايصبرون ، وصدق الشاعر :

ألا بالصبر تبلغ ماتريد وبالتقوى يلين لك الحديد

✪ ومن البلاغة الراقية اللطيفة أيضاً - سوق هذه العبارة « ولا يلقاها إلا الصابرون » مساق الحكمة أو المثل السائر حيث صيغت فى شبه تقرير عام عن الصابرين جميعاً فيدخل فيهم كل صابر ، ومنهم الذين وجّه إليهم العلماء نصيحتهم ، ويخرج منهم بطريق الأولى قارون وأمثاله ، ولو وُجِّهت هذه النصيحة بصيغة الخطاب لهم (اصبروا تتلقوها) لكانت خاصة بهم فتتحدّد فائدة النصيحة ويقصر هدفها . وسبحان من هذا كلامه !!

✪ « فَخَسَفْنَا بِهِ وبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كان له مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَه مِنْ دُونِ اللهِ وما كان مِنَ المُنْتَصِرِينَ » .

(الفاء) فى « فخسفنا » عاطفة لهذه العبارة على قول الله - تعالى - عن قارون : « قال : إنما أوتيته على علم عندى » وعلى قوله «فخرج على قومه فى زينته» لإفادة الترتيب والتعقيب فى هذه الأحداث الثلاثة مما يدل على أن الله - تعالى -

---

(١) من هذا المعنى قول الشاعر :-

إذا مارأية رفعت لمجْد تلقّاها عرابة باليمين

عاجله بالعقاب فلم يمهله ؛ إذْ لم يكن هناك تراخ فى الزمن لمعاقبته فالجزاء من جنس العمل فكما أنه - بعد مقولته هذه التى نسب فيها الفضل والنعمة إلى نفسه وعلمه هو نازعاً بمقولته فَضْلَ الله - تعالى - عليه : أخذته العزة بالإثم وخرج على قومه فى زينته معانداً متكبراً فى خيلاء الجبار فعاقبه الله من جنس عَجَلَته وعَاجَلَه بالعقاب السريع الشديد دون إمهال فخسف به وبداره الأرض .

✪ « بِهِ وبِدَارِهِ الأرْضَ »

يقول العلماء : إن الخسف بقارون حصل أولاً ثم خُسف بداره بعد أن اتهم بنو اسرائيل موسى - عليه السلام - بأنه دعا على قارون ؛ ليُخسف به ليستولى على ماله وداره(١) لكن العاطف هنا هو الواو « به وبداره » وليس ثم ، والواو لمطلق الجمع فيحتمل أن يكون خسف الأرض حصل بقارون أولاً ، أو بداره أولاً ، أو حصلا معاً وربما يؤيد الأخير أنَّ الباء فى « به وبداره » للمصاحبة والمعنى فخسفنا الأرض مصاحبة له ولداره فهو وداره مخسوفان مع الأرض التى هو فيها ، والله أعلم بالواقع ولكن التقديم والتأخير فى المتعلقات - كما ورد فى التنزيل الحكيم هو ماعليه المدار والإعجاز البلاغى ومن يدقق النظر يجد أن (الأرض) مفعول به للعامل (خسف) وترتيبه الأول - نحوياً - فى موالاته له ولكن توسط بينه وبين عامله المتعلقان الآخران « به وبداره » لأنهما هما المقصودان بالخسف وليس الأرض ، وقدّم الجار والمجرور « به » على الجار والمجرور « بداره » ؛ لأن الخسف بقارون هو المقصود الأول وللإسراع ببيان العقوبة التي حلّتْ بصاحب هذا المال الكثير ؛ لإشباع رغبة السامع المتشوق بعد سماعه قصته ، ومع هذا فربما يكون هذا التقديم ؛ لأن الخسف بقارون حصل أوّلاً - كما يقول العلماء - وإنْ كان العطف بالواو يُوهِنُه .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

١٠) ينظر تفسير البيضاوى ص ٨٨ جـ ٧ .

✪ « فَمَا كان له مِنْ فئةٍ يَنصرُونَه مِنْ دُونِ الله ومَا كان مِنَ المُنْتَصِرِينَ » .

(الفاء) في « فما كان له من فئة ينصرونه ... » عاطفة لمدخولها علي قوله : «فخسفنا به وبداره الأرض» لإفادة ترتيب الواقع بعد الخسف وتعقيبه لحدث الخسف مباشرة دون تراخٍ في الزمن ، وهذا الواقع هو عدم وجود من ينصرونه من دون الله ، وعدم مقدرة قارون على الانتصار ، وفي هذا تعريض بقارون وأنصاره الذين كانوا يناصرونه ولكنهم نفروا منه واعتزلوه بعد ظهور براءة موسى من اتهامه بالمرأة البَغِيّ ، ولم يبق معه غير رجلين خُسِفَ بهما معه[1] – وكما سبق فإنما يدل هذا على تعاقب أحداث هذه القصة بسرعة دون تراخ في الزمن[2] ومنها عدم وجود الناصرين وعدم مقدرة قارون على الانتصار مما يشير إلى أنّ أخذ الله – تعالى – هو – حقاً – أخذ عزيز مقتدر لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه فناسب ذلك العطف بالفاء . ولا مانع أن تكون الفاء في « فما كان له من فئة ... » واقعة في جواب شرط محذوف مفهوم من سياق الكلام ، والأصل : (فخسفنا به وبداره الأرض ولما حدث ذلك فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ...)[3] أما لماذا حذف الشرط فلكونه مفهوماً من سياق الكلام مدلولاً عليه بالقرينة وهذا الإيجاز البليغ بالحذف ؛ إذْ لا يجمع بين القرينة ومدلولها وإلاّ كان في الكلام ركاكة – حاشا لله – أن تكون في كلامه المعجز – جل شأن الله .

أما السر البلاغي في جملة الشرط وجوابه فهو الإشعار بنتيجة الخسف

---

(١) يقول الفخرالرازى – بعد أن عرض قصة البغى التى سلطها قارون علي موسى ثم اعترفت بذلك : أن موسى « قال : يارب إن كنت رسولك فاغضب لى فأوحى الله إليه أنْ مُرِ الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك فقال : يابنى اسرائيل : إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلتزم مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين .. ثم قال : ياأرض خذيهم فأخذتهم ...) (١٩ جـ ٢٥ المجلد الثالث عشر مفاتيح الغيب) .

(٢) راجع الكلام في « فخسفنا به وبداره .... ص ٤٠ ، ٤١ .

(٣) دخول الفاء على جواب الشرط – ومنه (لَمّا) – واجب إذا نفى بما – وقد جمع بعضهم المواضع التى يجب فيها دخول الفاء على جواب الشرط في قوله :-

اسمية ، طلبية وبجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيس

بطريقة مشوقة مشعرة بالجزاء الأوفى الذى لا رادّ له ؛ إذْ أنّ الجواب أو الجزاء مترتب على الشرط .

✪ وقد جاءت (من) الجارة فى الجملتين بعد نفى الكينونة بما فى صياغة بلاغية لطيفة : « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله » «وما كان من المنتصرين» لأن (من) فى الأولى أفادت تأكيد النفى وزيادة عمومه لكونها داخلة بعد النفى على النكرة « فئة » التى شملت الفئة الكثيرة والقليلة ، ويشبه هذا المثال : (مامعى من مال) إذْ فيه استقصاء فى نفى وجود المال معه بخلاف المثال (ما معى مال) ففيه احتمال وجود القليل منه[1] ، كذلك « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله » – كما يفهم من هذا الجمع « المنتصرين » ومن مادته أن قارون كان آنذاك ضعيفاً ذليلاً أو مغلوباً على أمره إزاء هذا العقاب ، أو أنه أُخِذَ على غرّة إلى درجة أنه لم يكن كفيره من الذين وجدوا فرصة يطلبون فيها النصرة من أحد ولا من الذين كانت عندهم الفرصة لأن يطلبوا النصرة من الله بالعفو عنهم ، ولا من الذين ينتقمون من خصومهم البشر كموسى – عليه السلام ؛ ولأجل هذا لم يقل : (وماكان من المنتقمين) ؛ لإنه لايليق بذات الله – تعالى – أوّلا ، ولأنه أوْسع معنى ثانياً – كما اتضح مما ذكرنا .

ولاريب أن النظم القرآنى الحكيم أبلغ من التعبير (فما كان له فئة ينصرونه من دون الله وماكان منتصراً) ؛ لأن النظم الحكيم بهذه الصياغة أفاد عدم وجود أى ناصر كان ، أو وجود أىّ انتصار من قارون ؛ لأن هذا قدر الله وهذا قضاؤه اللذان لا رادّ لهما فيناسبهما هذا الإحكام فى التعبير . وسبحان من هذا كلامه !!

✪ « وأصْبَحَ الذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بالأمْس يَقُولون : وَيْكَأنَّ اللهَ يَبْسُط الرِزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه ويَقْدر لَوْلاَ أنْ مَنَّ اللهَ عَلَيْنَا لَخَسَف بِنَا ، وَيْكأنُّه لاَ يُفْلِحُ الكافِرُون » .

(الواو) – هنا – عاطفة لربط تعجب ودهشة الذين تمنوا مكان قارون بما

(١) هذا المثالان من حديث الشيخ محمد متولى الشعراوى فى التلفاز .

قبله من الأحداث السابقة التي حصلت سريعاً والتي عطفت علي بعضها بفاء التعقيب ، وإذا كان المعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه فمعنى هذا أن تعجب ودهشة هؤلاء كان بعد الخسف مباشرة فى اليوم التالى دون تراخ فى الزمن وإلا فما الذى يجعلهم يؤخرون عجبهم ؟ وبدليل : « أصبح » و« بالأمس » فالفعل « أصبح » يفهم منه أن هذا القول من الذين تمنوا مكانه كان فى صباح اليوم التالى مباشرة للخسف ، وأن الخسف حصل ليلاً بدليل قوله «بالأمس » ؛ لأنه اليوم الذى قبل يومنا مباشرة ؛ ولهذا عيب على زهير فى قوله : ـ

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكننى عن علم مافى غَدٍ عَمِ

وكما سبق أنْ قلت إن الأحداث السابقة كانت متتالية دون تراخ فى الزمن : «أوتيته على علم عندى» « فخرج على قومه فى زينته » « فخسفنا به وبداره الأرض » « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » كذلك هذا القول من الذين تمنوا مكانه « ويكأن الله يبسط الرزق .... ويكأنه لا يفلح الكافرن » سياق وأحداث القصة يقتضيان أن يكون قولهم هذا متتالياً مباشراً لها - أيضا - وبخاصة الحدث الأخير : « فخسفنا به وبداره الأرض » ولهذا كانت الواو - هنا - عاطفة لربط تعجب ودهشة الذين تمنوا مكانه بما قبله من الأحداث السابقة ، ومع ذلك فإن معنى الصيرورة ملازم لهم - أيضا - لأن النظم الكريم صريح فى الحديث عن تحولهم عن أمنيتهم إلى حمد الله وشكره على أن لم يكونوا كقارون ؛ إذْ قالوا : لولا أنْ مَنّ الله علينا لخسف بنا » ربما يقصدون : لخسف بنا لأمنيتنا لأننا قلنا : « أوتى قارون » بالبناء للمجهول ، كما قال قارون : « إنما أوتيته » ولم نقل (ليت لنا مثل ماأتى الله قارون) فغضضنا النظر عن الأسباب الحقيقية كما فعل قارون !

✪ أما لماذا أُوثِرَ العطف بالواو - هنا - دون الفاء مع أن المقام يقتضيها ؛

فلأن عدم وجود النصراء وعدم قدرة قارون على الانتصار الذى هو آخر أحداث هذه القصة وكأنه جيء بها ليختم بها التعداد فى هذه الأحداث والتعداد يناسبه العطف بالواو كأنه قيل : (والحدث الأخير فى أحداث هذه القصة هو عدم وجود النصير لقارون وعدم قدرته على الانتصار بأى شكل كان وسبحان من هذا كلامه !!

✪ وفضل الاسم الموصول الخاص « الذين » عن الموصول المشترك « مَنْ » لأن « الذين تمنوا مكانه » فئة خاصة هى التى ذكرها الله - تعالى - من قبل بالموصول الخاص - أيضا - فى قوله - تعالى - « قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون ...) والتعبير بمن الموصول المشترك لايتناسب مع ذلك .

✪ والتعبير بالفعل « تمنوا » دون (رغبوا) أو (اشتهوا) أو (أحبوا) لوصف نفسيتهم بدقة ؛ إذْ أنهم حين رغبوا فى مكانة قارون لم يكونوا يطلبون شيئا ممكناً قريب الحصول ولكنه شيء بعيد المنال أو مستحيل الحصول وهذا يناسبه أداة التمنى (ليت) التى تفيد أحد هذين المعنيين ، ولو كان ماتمنوا قريب المنال - فى نظرهم - لقالوا : (لعل لنا مثل ماأوتى قارون) على مافى (لعل) من الرجاء أو التوقع القريب التحقق ، وسبحان من هذا كلامه !!

✪ أمَّا أنه قال : « تمنوا مكانه » دون (مكانته) أو (منزلته) فذلك على سبيل استعارة المكان للمكانة لأن فيه تجسيماً أو تصويراً حسياً للمكانة لاينكر إلى جانب أنه أشمل وأدق ؛ إذْ أنه بالنسبة لقارون - يعم المكان الحسى ذا الحيز ليشمل قَصْره أوْ قصوره ، والمكانة بمعنى المنزلة الاجتماعية بين الناس والجاه والسلطان .

✪ « والأصل فى المضارع « يقولون » أن يكون ماضيا لأنه حدث مضى فى الزمان الغابر ، أو يكون اسم فاعل (وأصبح الذين تمنوا ... قائلين) ولكن جيء به مضارعا لاستحضار الصورة الماضية لهذا القول منهم أمام السامع لتصويرها فى ذهنه أوضح ، ولِيَنْجرّ هذا التصور على تصوّر أحداث القصة لأخذ العبرة ، لهذا كان المضارع فى موقعه المؤثّر .

✪ « ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر » .

« ويْ » اسم فعل مضارع يفيد التعجب والدهشة من الحدث بمعنى (أعجب) أو (نعجب) وهو متلائم مع العبرة من القصة ومع الواقع بين العباد من البسط والتقدير فى الرزق بحكمة الله - تعالى - ففى ذلك مايدعو للدهشة والعجب لعدم معرفة حكمة الله - تعالى - فى ذلك .

✪ و« كأن » ليست كلها أخت (إنَّ) الناسخة ولكن الكاف - على الصحيح - وعلي مايقتضيه النظم العزيز للتعليل (السببية) كاللام أو الباء ، و(أنَّ) أخت (إنَّ) والمعنى عليه (نتعجب بسبب أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) ولها نظائر فى القرآن الكريم كقوله - تعالى : « ... كما علمكم مالم تكونوا تعلمون »[1] أى بسبب تعليمه إياكم ، ومثل « ... واذكروه كما هداكم »[2] أى بسبب هدايته لكم ، ومثل « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ... »[3] أى بسبب إرسالنا فيكم رسولاً فاذكرونى[4] ويؤيده فتح همزة (أنَّ) كما تفتح مع اللام (لأن) أو مع الباء « ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل »[5] « ذلك بأن الله هو الحق »[6] ويؤيده أيضا - أنَّ مدخولها هنا ليس المشبه كما فى (كأنَّ) المتمحضة للتشبيه مثل كأن عليا أسد ، أو المشوبة بالظن مثل : (كأن الخطيب يقرأ فى كتاب) ممايدل على أنها ليست كأنَّ الناسخة أخت إنَّ .

✪ أما لماذا فضل « ويكأن » على (ويْ لأنَّ) أو (وَيْ بأنَّ) فلأن ذلك جاء على طريقة العرب فى استعمالهم : إذْ يبدو أن الاستعمال العربى يفضل استعمال اسم الفعل (وَيْ) التعجبى التندمى مع كاف التعليل بدليل أنه لم يرد

---

(١) ٢٣٩ سورة البقرة .
(٢) ١٩٨ سورة البقرة .
(٣) ١٥١ سورة البقرة .
(٤) ينظر مغنى اللبيب لابن هشام ١٥١ ، ١٦٣ جـ ١ .
(٥) ٦١ سورة الحج .
(٦) ٣٠ لقمان و٦٢ الحج)
(٧) البيت فى لسان العرب (ويا) ٤٩٤٤ جـ ٦ دار المعارف .

استعماله مع اللام أو الباء وورد مع الكاف كما فى قول سعيد بن زيد أو نبيه بن الحجاج السهمى :ـ

ويكأن من لم يكن له نشبٌ يُحْـ ... بَبْ ومن يفتقر يعيش عيش ضُر (١)

فمعناه : أتعجب لأن من يكون له مال يحبه الناس ومن يكون فقيراً يعيش عيش ضرٍّ ، فالتعجب والتعليل واضحان .

والفعلان « يبسط » و« يقدر » ساغ وحسن تعاطفهما لما بينهما من التضاد بينهما لاختلاف ذات كل منهما وللمقارنة بينهما والتضاد أو المطابقة بين معنيهما لها أثر نفسى بلاغى لطيف يتجلى فى المقارنة بين الحدثين فيتصوران فى الذهن أوضح ؛ لأن كلا منهما يوضح الآخر أكثر ، وكما يقال : «والضد يظهر حسنه الضدُّ » « وبضدها تتميز الأشياء » وهذا من الأسرار البلاغية اللطيفة للطباق البديعى فى القرآن الكريم .

✪ هذا .. وفى كل من الفعلين « يبسط » و« يقدر » استعارة تصريحية تبعية سرّها البلاغى هو تصوير المعنوى (البسط والتقدير) بصورة الحسى ؛ ليتصور فى الذهن أوضح ولتتأثر النفسى أكثر ، وذلك أنه شبه الإعطاء بسعة ببسط الشىء الحسى الذى يفرش على اتساع كالحصير أو (السجادة) – مثلا ، واستعير البسط للإعطاء الكثير .. واشتق منه الفعل يبسط الذى صار بعد الاستعارة بمعنى يعطى بكثرة كما شبه الإعطاء بِقِلَّةٍ بتقدير الشىء القليل المحسّ ثم استعير له ثم اشتق منه المضارع « بتقدير » الذى صار بعد الاستعارة بمعنى : يعطى بقلة ولهذا كان السر البلاغى هو تصويرهما بصورة محسّة بالحاسة الظاهرة (العين) ليتضحا أكثر .

✪ « لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهَ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيكأَنَّه لاَ يُفْلِحُ الكافِرُون » .

يلاحظ أن هذه العبارة لم تعطف على مقول القول السابق : « يقولون : يكأن

---

(١) البيت فى لسان العرب (ويا) ٤٩٤٤ جـ ٦ دار المعارف .

الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر » مع أن العبارتين من قول الذين تمنوا وَندموا ... فلماذا فُصِلَ المقول الثانى عن المقول الأول (لم يعطفه عليه) ؟

الجواب : أن هذه العبارة وقعت جواباً لسؤالٍ مقدر معلل وكأنّ سائلا سألهم : لماذا تعجّبكم ودهشتكم وندمكم ؟ فأجابوا " لأنه : «لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا» ويكون هذا تعليلاً ثانيا لتعجبهم وندمهم بعد تعليلهم الأول المتمثل فى قولهم : « ويكأنّ الله يبسط الرزق ... » فإن معناه نتعجب بسبب أن الله يبسط الرزق ... ويقدر » أو أنه لم يعطف لأنّ قبل هذه العبارة « لولا أن من الله علينا .. » تعجباً ثانياً محذوفاً مدلولاً عليه بالمذكور وحذف لدلالة الأول والثالث عليه إستبعاداً للتكرار الممل الذى لايليق بالبلاغة فضلاً عن بلاغة القرآن الكريم كأنه قيل : (ويكأن الله يبسط الرزق ... ويكأنه لولا أنْ مَنَّ الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لايفلح الكافرون » ولا ريب أنّ تكرار التعجب متناسب مع أحداث هذه القصة .

✪ و« لولا »حرف امتناع لوجود ؛ إذْ امتنع حدوث الجواب وهو« لخسف بنا» لوجود الشرط وهو مَنّ الله - تعالى - عليهم .

✪ وحُذِفَ متعلق الفعل «مَنَّ» حذفاً بلاغياً للإيجاز لكونه معلوماً من السياق ، والتقدير : من الله علينا بالنجاة أو بعدم الغنى الفاحش الذي يبطر النفس ويخرجها من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر ، أو لأننا لم نكن من شيعة قارون الذين هلكوا معه - و(اللام) واقعة فى جواب (لولا) ، وحُذِفَ مفعول (خسف) حذفاً بلاغياً للقرينة الدالة عليه : أى لخسف بنا الأرض كما خسف بقارون ولأن في ذكره مع وجود القرنية الدالة عليه ركاكة تضعف البلاغة .

✪ و« أنْ » فى « أنْ مَنَّ » مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والمعنى : لولا أنه مَنّ الله علينا بالنجاة لخسف بنا الأرض .

✪ وكان يمكن أنْ يقال : (لولا مَنّ»[1] الله علينا لخسف بنا) ولكن فضل

---

١٠) مَنّ : بفتح النون المشددة فعل ماض .

ضمير الشأن والقصة مع أنّ ؛ لتفخيم هذا المن وتعظيمه منهم وكأنّ نجاتهم قصة من شأنها أنْ يُتحاكى بها ، و- أيضا - للتأكيد بأنّ ؛ ليدلل على أن عدم خسفهم أو عدم طغيانهم كقارون أو عدم مشايعته إنما هو نعمة من الله - تعالى - لا يتطرق إليها أدنى شك .

✪ « وَيكأنَّه لاَ يُفْلِحُ الكافِرُون » .

« ويكأن » تأكيد ثان أو ثالث[1] للتعجب السابق « ويكأنّ » للتدليل على زيادة عجبهم وندمهم ، ولتأكيد عدم فلاح الكافرين .

و(لا) للنفى المطلق لإفادة نَفْى فلاح الكافرين نفيا مطلقاً لا احتمال فيه فى كل زمان ومكان . ، و« الكافرون » من الكَفْر وهو الستر والتغطية والإخفاء ؛ لأن الكافر يكفر بالله وتشريعه ورسالاته ، وهو أشد وأقبح الذنوب ، ولهذا لم يقل لا يفلح الباغون أو الطاغون أو الظالمون لأنه : مابعد الكفر من ذنب .

✪ ومن يدقق النظر يجد أن قوله : « ويكأنه لا يفلح الكافرون » سيق مساق الحكمة أو المثل السائر فجاء بصيغة الجمع « الكافرون » ليعم كل كافر : قارون وغيره فى كل زمان ومكان وسبحان من هذا كلامه !!

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪✪ ✪

✪ « تلك الدارُ الآخـــرةُ نَجْعَلُهَا للذِينَ لايُرِيدُون عُلُوًا فى الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا والعاقِبَةُ للمتقينَ » .

الإشارة بتلك تفخيم وتعظيم للدار الآخرة يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها[2] ثم إنه قال : « نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً » ولم يقل : نجعلها للذين يتركون العلو فى الأرض والإفساد فيها ، أى عَلّقَ الوعد بترك إرادتهما ولم يعلقه بتركهما ؛ لأن الإرادة أو تركها مَيْلٌ قلبى فالغرض هو سد باب

(١) راجع التعليل السابق لقوله : « لولا أنْ من الله علينا لخسف بنا » ص ٤٨ .
(٢) ٢٠ جـ ٢٥ مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

الذرائع من مبدئه ؛ لأنه إذا انتفى الميل القلبى إلى العلو والفساد انتفى عملياً وبالتالى تَرْكهما من باب أولى ويعنى هذا أن مجرد الميل القلبى إلى العلو والفساد مذموم وإن كان لا يعاقب عليه إلا إذا نُفّذ وأيضا - لو علق الوعد بالترك لتوهم منه أنّ الوعد بالجنة خاص بمن هم متلبسُّون - فعلاً - بالعلو والفساد إذا تركوهما وهذا غير مراد لأنه عام يشمل هؤلاء ويشمل - أيضاً - من لا يميل إليهما .

هذا ... وتلك العبارة حُسْنُ ختام بديعّى ذَيَّل به القرآن الكريم قصتى فرعون وقارون ، وهو متناسب مع براعة الاستهلال فى القصتين ، بل يحمل إشارات إلى هذا الاستهلال ؛ فقصة فرعون استهلت بقول الله تعالى - « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً .. إنه كان من المفسدين » ، وقصة قارون استهلت بقول الله : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ... إلى أنْ قال : « ولا تبغ الفساد فى الأرض إنّ الله لا يحب المفسدين » ولهذا فقد ذَمَّ مضمونُ الآية الذين يعتلون فى الأرض ويتجبرون ويفسدون ومنهم فرعون وقارون ، وطوقت الآية بمنطوقها أعناق المتقين الذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا بتبشيرهم بالعاقبة الحسنى ، وحذف وصف العاقبة لاقترانها بأل التى للعهد الذهنى : « العاقبة للمتقين » أى العاقبة المعهودة فى الأذهان بأنها العاقبة الحسنى - لا غيرها .

والآية بهذا إيجاز بليغ للعبرة والعظة فى هاتين القصتين ، وختامها بقوله - تعالى - « والعاقبة للمتقين » سيق مساق الحكمة أو المثل ليجرى على الألسنة ليعم كل مُتَّقٍ له فى كل زمان ومكان والذين ليس منهم أمثال فرعون وقارون . وسبحان من هذا كلامه !!

أهم مراجع البحث

١ – أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم . د. عبد الحليم حفنى الطبعة الثانية ١٩٨٥ . الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ – إعراب القرآن وبيانه للأستاذ محيى الدين الدرويش طبع ونشر دار ابن كثير بدمشق ١٤١٢ هـ ١٩٨٢ م .

٣ – بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى جـ ١ الطبعة الخامسة بالمطبعة النموذجية – نشر مكتبة الآداب بالجماميز .

٤ – البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية د. محمد حسنين أبو موسى – دار الحمامى للطباعة – نشر دار الفكر العربى .

٥ – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ٢٠ نشر الدار التونسية ١٩٨٤ م .

٦ – تفسير ابن كثير جـ ٣ طبع دار إحياء الكتب العربية – عيس الحلبى .

٧ – تفسير البيضاوى جـ ٧ هامشه حاشية الشهاب الخفاجى (عناية القاضى) المكتبة الإسلامية – ديار بكر – تركيا .

٨ – الخصائص لابن جنى . تحقيق محمد على النجار – عالم الكتب الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .

٩ – دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى – تصحيح السيد محمد رشيد رضا – الطبعة السادسة . مكتبة ومطبعة صبيح ١٣٨٠ هـ .

١٠ – روح المعانى للألوسى جـ ٢٠ مكتبة دار التراث – القاهرة .

١١ – روضة الفصاحة لأبى منصور الثعالبى تحقيق وتعليق الأستاذ محمد ابراهيم سليم . طبع ونشر مكتبة القرآن سنة ١٩٩٤ .

١٢ - صحيح مسلم جـ ٢ - دار الكتب العلمية - بيروت .

١٣ - في ظلال القرآن . المجلد الخامس - الطبعة العاشرة للأستاذ سيد قطب دار الشروق ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

١٤ - الكشاف للزمخشرى جـ٣ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بهامشه حاشية السيد الشريف .

١٥ - المطول لسعد الدين التفتازانى الطبعة الأولى مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ .

١٦ - مغنى اللبيب لابن هشام . نشر دار إحياء الكتب العربية .

١٧ - مفاتيح الغيب للفخرالرازى جـ ٢٥ المجلد الثالث عشر الطبعة الأولي ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت .

معاجم استعنت بها

١ - المصباح المنير للفيومى .

٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن . محمد فؤاد عبد الباقى .

٣ - المعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية) .

٤ - القاموس المحيط .

٥ - لسان العرب لابن منظور - دار المعارف .